وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية لكتاب
منشورات الطفل

سلسلة أعلام للناشئة
العدد
" ٢ "

الأميرُ السَّعيد

محمد عبد الكريم

محمد بري العواني



الأميرُ السعيد
محمد عبد الكريم

محمد بري العواني

الأميرُ السَّعيد

محمد عبد الكريم

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١م

الأمير السعيد محمد عبد الكريم / محمد بري العواني .-
دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م .- ٩٦ ص؛
٢٠ سم .-

(سلسلة أعلام للناشئة؛ ٢)

١ - ٩٢٧: عبد الكريم، محمد ع ٢ - العنوان
٣ -العواني ٤ - السلسلة
مكتبة الأسد

سلسلة أعلام للناشئة
«٢»

(١)

حِمْصُ العَدِيَّةُ

أنا عبد الكريم المرعي، الشَّهيرُ بأميرِ البُزُقِ محمد عبد الكريم. عشتُ حياةً عظيمةً، مليئةً بالمجدِ والشُّهرةِ، شهرة تمنّاها كثيرٌ مِنَ المبدعينَ العربِ مِمَّنْ عاصرْتُهم وجايلْتُهم.

كانتْ **ولادتي في حمْصَ عام ١٩١١م، في حيٍّ** فقيرٍ، بعيدٍ عَنِ العمرانِ قليلاً، هو **حيُّ الخضرِ**، القريبُ جداً مِنْ قلعةِ حمْصَ العظيمةِ التي هدَمَها الرومانُ ذاتَ يومٍ، الضَّخمةِ أكثرَ بكثيرٍ ممَّا يتصوَّرُهُ إنسانٌ. لأنَّني حينَ كنتُ أنظرُ إليها مِنْ أيِّ جهةٍ كنتُ أقارنُ جسدي الضَّئيلَ - الضَّئيلَ جِدًّا - بها، فأكتشفُ أنَّني قَزَمٌ بالنِّسبةِ لِصخرةٍ صغيرةٍ مِنْ صخورِها.

مع ذلكَ لمْ أكنْ أشعرُ بأيِّ ضَعفٍ، أو وَهَنٍ، لأنَّ القلعةَ ترابٌ وحجارةٌ رغمَ عظمَتِها، وأنا إنسانٌ. والإنسانُ أعظمُ مخلوقٍ في الكونِ كلِّهِ. وقدْ خَلَقَهُ اللهُ على مثالِهِ حتَّى قالَ فيهِ: ﴿ **لقدْ خَلَقْنا الإنسانَ في أَحْسَنِ تَقْويم** ﴾.(١)

حينَ ولدَتْني أمي "**عَماشة**" - وهي الزَّوجةُ الثَّانيةُ لأبي "**علي المرْعي**" عازفِ البُزُقِ الشَّهيرِ في حِمْصَ - فَتَحْتُ عَيْنَيَّ على أخَوَيْنِ صغيريْنِ هما "**سليم**" و"**محمد**".

وحينَ أصغيتُ بأُذُنيَّ إلى الكونِ المحيطِ بي تفتَّحَتا على نَغَماتٍ جميلةٍ، وألحانٍ خلاّبةٍ، وإيقاعاتٍ مُرَقِّصَةٍ مدهشةٍ. تلكَ كانتْ إحدى عجائبِ آلةِ البُزُقِ التي تَعزِفُ عليها عائلتي، والتي تُوَفِّرُ لنا طعامَنا وشرابَنا. بلْ إنَّها توفِّرُ لنا حياتَنا، رغمَ أنَّنا لمْ نكنْ نعيشُ إلاّ كَفافَ يومِنا بما نُحَصِّلُهُ مِنَ الأفراحِ والأعراسِ.

ما بينَ الحقولِ الخضراءِ التي تمتدُّ أمامَ دارِنا في حيِّ "**الخِضْرِ**"، والقلعةِ الشامخةِ، ونَغَماتِ البُزُقِ نَمَتْ روحي

(١) سورة التين - الآية ٩٥.

وكبرتْ. وتنفَّسَتْ أحاسيسي ومشاعري وعقلي أروعَ الألحانِ والأغاني التي سأُبدعُ في عزفِها وغنائِها، والتي سوفَ أُبدِعُها منْ ألحاني حينَ أصبحُ كبيراً. بلْ سوفَ أقومُ بأفعالٍ لمْ تكنْ لَتَخْطُرُ ببالِ أحدٍ على الإطلاقِ. وهي اليومَ مسجَّلةٌ باسمي أنا محمد عبد الكريم.

حينَ حَمَلَني والدي - بعدَ أنْ وَلَدَتْني أمّي - ونَظَرَ في عَيْنَيَّ الصَّغيرتَيْنِ قالَ لي: **كُنْ مُبْدِعاً**. فقلتُ بابتسامةٍ ناعمةٍ: سأكونُ. وكانَ ذلكَ عهداً منّي لهُ.

إنَّني أتخيَّلُ الآنَ هذا الحوارَ الذي لمْ يَقُلْهُ أبي، ولمْ أقلْهُ أنا في الحقيقةِ. ولكنَّهُ قالَهُ بأفعالِه الحَسَنَةِ تُجاهي حينَ أدركَ أنَّ جسدي لنْ يكبَرَ مثلَ كلِّ الأطفالِ، وسأبقى قَزَماً، فرَعاني، ولاعَبَني، ومازَحَني، لأنَّني كنتُ محروماً منَ اللَّعِبِ معَ أطفالِ الحارةِ، أو معَ إخوتي وأبناءِ عمومتي، بسببِ جسدي الضَّئيلِ النحيلِ، ولأنَّ أبي كانَ يخافُ عليَّ حتَّى منْ نَسْمةِ الهواءِ التي يُمكنُ أنْ تَحملَني مثلَ ورقةِ شجرةٍ هزيلةٍ وتُطيِّرَني إلى بلادٍ بعيدةٍ.

(٢)

عودي الأول

ومثلَ أطفالِ العالَمِ الفقراءِ جميعاً صـنعتُ لنفسي عوداً مِنْ قطعةِ خشبٍ مهترئةٍ وجدتُها في دارنا ممَّا كُنَّا نُجَمِّعُهُ مِنَ الشوارعِ لِنَطبُخَ عليهِ طعامَنا، ونتدفأَ بهِ في الشِّتاءِ. دَقَقْتُ في الخَشَبةِ مِسْمارَيْنِ، وشَدَدْتُ بينَهما وَتَرَاً ممَّا وَجَدْتُهُ مِنْ مُخلَّفَاتِ أوتارِ والدي، وصرتُ أعزفُ ما يَخطرُ ببالي أولاً بأوَّلَ. لمْ أكنْ أعزِفُ ألحاناً، بلْ نَغَمَات أحْسَسْتُ بأنَّها منسجمةٌ، متآلفةٌ. لكنَّها غريبةٌ على الأُذُنِ قليلاً.

حينَ سَمِعَني والدي مُصادَفَةً لمْ يُصَدِّقْ ما سمعَ. دَنَا منِّي. وقفَ فوقَ رأسي. كنتُ مُنشغلاً بآلتي، وبألحاني.

الحقيقةُ أنَّني لمْ أُحسَّ بمقْدَمِهِ. ولا بوقوفِهِ فوقَ رأسي حتَّى سَمِعْتُهُ يُصَفِّقُ هاتفاً..

- رائع. رائع.

ثمَّ قَرْفَصَ أمامي وهو يُحَدِّقُ في آلتي ويسألُني: هلْ صَنَعْتَها بنفسِك؟!. هَزَزْتُ رأسي بالإيجابِ مِنْ دونَ خوفٍ. مَدَّ يدَهُ وأمسكَ بِيَدَيَّ النَّحيلتَيْنِ وجَذَبَهُما نحوَه بحنانٍ وقادَني إلى داخلِ الغرفةِ الصغيرةِ التي كنّا نأكلُ ونتمرَّنُ ونستقبلُ الضيوفَ فيها. أجلسَني بهدوءٍ فوقَ مِخدَّةٍ مِنْ قَشٍّ، ثمَّ أعطاني آلةَ عودٍ كبيرةَ الحجمِ، وريشةَ نَسْرٍ طويلةً وصَمَتَ. صمتَ وهو ينظرُ إليَّ، ففهمتُ أنهُ يُريدُني أنْ أعزفَ أمامَهُ.

كانتْ لحظاتٍ مخيفةً لِكلَيْنَا؛ أبي وأنا. لأبي الذي ينظرُ في عينيَّ تارةً، وإلى أصابعي النَّحيلةِ طويلاً غيرَ مُصَدِّقٍ وهو يقولُ لي: **"كنْ مبدعاً"**. وينظرُ إليَّ لأنَّني أُمسكُ بآلةٍ لا تُشبهُ خَشَبَتي ذاتَ الوترِ الواحدِ. أمَّا آلةُ العودِ فكبيرةٌ، وذاتُ خمسةِ أوتارٍ، ولهُا ظَهْرٌ مُحدَّبٌ كبيرٌ. كانَ

العودُ أكبرَ مِنْ جسدي، أنا ابنَ الخامــسةِ مِــنْ عمــري. وبحركةٍ لا شعوريَّةٍ وَضَعْتُ العودَ فوقَ المِخدَّةِ وانحنيْــتُ عليهِ بكلِّ جسدي كيْ تَصِلَ يَدِي اليُمنى إلى الأوتارِ.

عَصَفَتْ بي موجةٌ مِــنَ التَّحــدِّي. تحوّلــتْ إلــى إعصارٍ في روحــي. إنْ لــمْ أعــزِفِ الآنَ فــإنَّني لــنْ أعزِفَ بعدَ ذلكَ أبداً.

كانتِ الألحانُ والأنغامُ والإيقاعاتُ قدْ سكنتْ جسدي وعقلي وروحي ومشاعري وأحاسيسي وَوُجداني. أنا أفطِرُ وأتغدّى وأتعشّى ألحاناً وأنغاماً وإيقاعاتٍ. أنامُ وأصــحو وألعبُ وأضحكُ وأبكي عليها جميعاً. هكذا كــانَ بيتُنــا. موسيقا. موسيقا. موسيقا. ولا شيءَ غيرُ الموسيقا!.

ما أذكُرُهُ أنَّ يديَّ الاثنتَيْنِ؛ اليمنى واليــسرى؛ قــدِ انزلقتا على الأوتارِ، وانطلقتا مثلَ صَقْرٍ قــويٍّ، ســريعٍ، وَهُمَا تُرسلانِ ألحاناً مخزونةً في أعماقي يَعجــزُ عنهــا كثيرٌ مِنَ العازفينَ الكبارِ.

وما أذكُرُهُ أنَّ أبي بُهِتَ ففتحَ فمَــهُ مندهــشاً غيــرَ مصدِّقٍ أنّ هذا الطفلَ المَعُوقَ، القَــزَمَ، الــذي لا يــشبهُ الأطفالَ الآخرينَ الأسوياءَ يعزفُ ما لا يستطيعهُ الكبارُ. وعلى الفَوْرِ دارتْ في رأسهِ أسئلةٌ كثيرةٌ مُرْعبةٌ....

- هلْ تسكُنُهُ روحُ شيطانٍ؟.
- متى حفظَ تلكَ الألحانَ والأغاني؟.
- مَنْ عَلَّمَهُ مواضعَ النَّغَماتِ على الأوتارِ؟.
- مَنْ علَّمَهُ أصولَ الإيقاعاتِ وضَبْطَهَا؟.

وهمسَ في سِرِّهِ: لعلَّ فيهِ روحَ شــيطانٍ. شــيطانٍ فنّيٍّ. ولكنْ... كيف؟.

فيما بَعْدُ يا أصدقائي سوفَ أُبدِعُ لحناً عظيماً حيّــرَ العازفينَ الكبارَ وأرْبَكَهُم. لقدْ سمَّيتُهُ **"رقــصة الــشيطان"** لِسرعتِهِ ورشاقتِهِ، وبناءِ جُمَلِهِ اللحنيَّةِ المُعَقَّدَةِ. فعلتُ ذلكَ لأعبّرَ منْ خلالهِ عَنْ طاقــاتي الإبداعيــةِ الخلاّقــةِ فــي العزفِ والتلحينِ والتأليفِ الموسيقيِّ، ولأُفجِّرَ مــشاعري

وأحاسيسي متحدِّياً العالَمَ المُحيطَ بـــي. العـــالَمَ الكبيـــرَ، الضَّخْمَ، الذي حاولَ مِراراً أنْ يُرعبَني، مُستهيناً بِـــضآلةِ جسدي فما اســـتطاعَ. لقـــدْ تحدَّيْتُـــهُ بعزْفـــي بأنغـــامي، بإيقاعاتي وهو يَلينُ ويلينُ. سيطرتُ عليهِ فاستكانَ لـــي، وقد صارَ لي ما صارَ مِنْ مجدٍ وشُهرةٍ.

انحنى والدي نحوي على ركبتيهِ. قَبَّلَني مِنْ خَـــدَّيَّ ورأسي. ثمَّ أمسكَ بأصابعِ كفَّيَّ وقَبَّلَ أناملَهُمـــا وعينـــاهُ تَفيضانِ بدمعٍ غزيرٍ. كانَ الدمعُ يَبْرُقُ كَحَبَّـــاتِ اللؤلـــؤ. كانَ الدمعُ دمعَ الفرحِ الذي لا حـــدودَ لـــهُ. كـــانَ دمعـــاً لا يمكنُ وَصْفُهُ لِقداستِهِ.

لمْ أكنْ أُدرِكُ لحظَتَها معنى أنْ يُقَبِّلَ أبٌ أناملَ طفلهِ الصغيرِ. لكنَّهُ - وهو ينظرُ في عينيَّ تارةً، وإلى أنـــاملي تارةً أخرى - همسَ وكأنَّهُ فـــي صـــلاةٍ: **"أنـــتَ مُبْـــدِعٌ"**. وضَمَّني إلى صدرِهِ بقوةٍ وحنـــانٍ لـــمْ أذقْ مثلَهُمـــا فـــي حياتي، فأحسستُ بأنَّني أطيرُ نحوَ الأعالي. أطيرُ، أطيرُ. نحوَ السَّماءِ أطيرُ، وأنا بينَ يَدَيْهِ. لا. لا. بـــلْ أحســـستُ

بأنَّني أُغَلُّ في صدرِهِ. أسكنُ قلبَهُ، وأسمعُ خفقانَهُ، فأسمعُ لأوَّلِ مرّةٍ أجملَ أُغنيةِ حبٍّ. ولنْ أسمعَ مثلَهَا بعدَ الآنَ رغمَ كلِّ ما سمعتُهُ، وما لحّنْتُهُ لكبارِ المطربينَ والمطرباتِ، وما غنَّيْتُهُ لغيري أو لنفسي. ولسوفَ تَحملُ ألحاني بعضاً منْ تلكَ الإيقاعاتِ الأبويَّةِ الحَنونِ.

لقدْ كانتْ أغنيةَ حبٍّ عظيمٍ جعلتْ طريقي مُمَهَّداً. مفروشاً بالنُّورِ. أغنيةً شَحَنَتْني بِطاقَةٍ خلاّقةٍ ظلّتْ تقودُني نحوَ الإبداعِ سنينَ طويلةً حتَّى دَبَّ الرومَاتيزمُ في أناملي ومَنَعَني مِنَ العزفِ على العودِ أو البُزُق. لكنني كنتُ قدْ أنْجَزْتُ كثيراً كثيراً مِنْ إبداعي، وفَتَنْتُ الناسَ؛ أغنياءَهُم وفقراءَهُم. كبارَهُم وصغارَهُم. أُمراءَهُم وملوكَهُم ورؤساءَهُم.

غيرَ أنَّ أعظمَ ما في الأمرِ هو أنَّهم جميعاً كانوا يَصيرونَ بعزفي وألحاني متساوِينَ لا يَفْضُلُ أحدُهمُ الآخرَ لانشغالِهِم بألحاني. أمَّا أنا فأبقى أميراً وحيداً لا يُنازِعُني على إمارتي أحدٌ حتَّى بعدَ انتهائي مِنَ العزفِ، فأذهبُ إلى نومي وقدْ ملأْتُ الدنيا، وشغلتُ الناسَ.

غادرَ والدي الغرفةَ الصغيرةَ مَزْهُوّاً مِــنْ دونِ أنْ يلتفتَ إلى وراءٍ. لقدْ تيقّنَ مِنْ أنَّني مبدعٌ، لأنهُ تركَ آلــةَ العودِ بينَ يَدَيَّ النَّحيلتيْنِ.

أمّا أنا فقدْ وضعتُ العودَ جانباً، ونهضتُ نحوَ تلــكَ الآلةِ الصغيرةِ الجسمِ، طويلةِ العُنُقِ. إنَّهــا تُــشبهُني أنــا الصغيرَ الجسدِ، طويلَ الأماني. كنّا شَبيهَيْنِ. تَوْأَمَيْنِ. بلْ كنّا واحداً كما سأكتشفُ فيما بَعْدُ. **أنا البُزُقُ، والبُزُقُ أنــا**. واسمي بينَ الناسِ عبد الكريم المرعي.

هكذا عَرَفَتْني حِمْصُ وأنا ابنُ سبعِ سنينَ مِنَ العُمرِ. إنَّها َلأُعجوبةُ الدّهرِ كُلِّهِ. طفلٌ قَزَمٌ نَحيلٌ يفعلُ الأعاجيبَ على آلةٍ تكادُ أنْ تكونَ أكثرَ منهُ طولاً. وإذا عزفَ علــى العودِ فإنَّ العودَ أضخمُ منهُ. هي أعجوبةٌ حقّاً. ولو حكاها أحدٌ أمامَ أُناسٍ لا يعرفونَني فَلَسوفَ يقولونَ: إنَّهُ يكــذبُ، أو يبالغُ!.

(٣)

نبوغ وحيرة

ما أحملهُ في قلبي وعقلي لوالدي مِنْ حبٍّ واحترامٍ وتكريمٍ يفوقُ إبداعي. كانَ في إمكانهِ – وأنا القَـزَمَ - أنْ يُهمِلَني مثلَ أيِّ كائنٍ غيرِ نافعٍ. لكنَّهُ كانَ - وكما قلـتُ - يَقرأُ مستقبلي بروحهِ، بلْ بِأُبُوَّتهِ الحنونِ. كانَ يقـرأُ فـي عينيَّ البرَّاقَتَيْنِ، وفي أناملي. بلْ كانَ يُؤْمِنُ بأنَّ الإنـسانَ إنسانٌ بعقلهِ وروحهِ وعَمَلِهِ، لا بجسَدِهِ.

وهكذا أخذني إلى الكتّابِ أولاً، ثـمَّ سـجَّلَني فـي **"الكلّيَّةِ الإنجيليَّةِ" في حيٍّ بابِ السِّباعِ**. وهي مدرسةٌ تابعـةٌ للإرْساليَّةِ التبشيريَّةِ البروتستانتيَّةِ الإنكليزيَّةِ. ولِهذا كـانَ أهالي حِمْصَ يُطلقونَ عليها اسمَ **"مدرسةِ الإنكليزِ"**.

كانَ هَمُّ والدي أنْ أتعلَّمَ القراءةَ والكتابةَ والحـــسابَ مثلَ أبناءِ المدينةِ. غيرَ أنَّني لمْ أمكثْ طويلاً في الكتّابِ، ولا في المدرسةِ النظاميَّةِ الخاصَّةِ.

كانتِ الموسيقا هي التـــي تَجْــذِبُني إلـــى عَــسَلِها وشَهْدِها. أليستْ هي التي تَطِنُّ في رأسي علـــى الـــدوامِ فيراني الناسُ مسحوراً ؟. مأخوذاً؟. ساهِماً؟. أليستْ هي التي جَعَلَتْني ممسكاً دائمـــاً بـــالبُزُقِ أعــزفُ وأعــزفُ وأعزفُ فلا أدري نهاري مِنْ ليلي، ولا صَــحوي مِــنْ نومي، ولا فرحي مِنْ حزني؟.

لعلَّكمْ لا تصدِّقونَ يا أصـــدقائي مـــا أحكيـــهِ لكـــمْ. إذنْ: كيفَ يُصبحُ المَرْءُ أميراً مِـــنْ دونِ أنْ يكـــونَ قـــدْ فعلَ ذلكَ كلَّهُ؟.

صَدِّقوا إذاً أنَّني قُدْتُ فرقةً موسيقيةً صـــغيرةً وأنـــا ابنُ سبعِ ســـنينَ، وقـــدْ عَزَفْنَـــا للنَّـــاسِ، وغنّيْنـــا لهُـــم فأَمتعناهُمْ وسَحرْناهُمْ.

وصدّقوا أيضاً أنَّني ضِقتُ بالبُزُق القديمِ الــذي لــمْ يكنْ يُرضي جُموحي في العزفِ، ولمْ يستجبْ لابتكاراتي اللحنيَّةِ والإيقاعيَّةِ.

ماذا أصنعُ بآلةٍ مؤلَّفةٍ مِنْ وتَرٍ واحــدٍ، أو وتَــرَيْنِ، وزَندٍ قصيرٍ يحتوي على سبعَ عشرةَ حَبْسَةً، أو "دَسْــتاناً" تَخرجُ منها النَّغماتُ والألحانُ. كانَ ذلكَ أقلَّ كثيــراً مِــنْ طموحاتي. بلْ مِنْ أفكاري الموسيقيَّةِ التــي ســأُترجِمُها بعزفيَ المدهشِ فيما بَعْدُ.

ليستِ الموسيقا أصواتاً وحَسْبُ. كلُّ إنسانٍ يُمكِنُــهُ أنْ يُصْدِرَ أصواتاً على أيَّةِ آلةٍ موسيقيَّةٍ. ولكنَّ الموســيقا أفكارٌ علينا أنْ نَصوغَها في جُمَلٍ لحنيَّةٍ وإيقاعيَّةٍ متآلفــةٍ، مُنسجمةٍ وجميلةٍ. علينا أنْ نَصوغَها بالنَّغَماتِ فــي كــلِّ واحدٍ بِحَيْثُ لا يمكنُ فَصْلُ النَّغْمةِ عَنِ الأخــرى. ولهــذا كانَ البُزُقُ أصغرَ منِّــي بكثيــرٍ. أعنــي أصــغرَ مــنْ طموحاتي وأفكاري. ولَسوفَ يظلُّ ذلكَ يَشْغَلُني ويؤرِّقُني طويلاً حتَّى تمكَّنتُ مِنِ اختــراعِ بُزُقــي الخــاصِّ بــي،

فَطَوَّرْتُ زَنْدَهُ، وَزِدْتُ حَبساتِهِ لِيلبّيَ صَخَبَ أفكاري، وجموحَ مشاعري وأحاسيسي.

على أنَّني إلى جانبِ العزفِ كنتُ أغنّي في السهراتِ والحفلاتِ العامةِ. فصوتي المتناسبُ معَ ضآلةِ جسدي كانَ أشبهَ بصوتِ **"أمِّ كلثوم"** النجمةِ الصاعدةِ بثقةٍ وقوّةٍ. ولهذا غَنَّيْتُ أُغنياتِها بإتقانٍ وإحساسٍ عالِيَيْنِ، معَ تَفَرُّدٍ في تقاسيمي التي لا تُشبهُ تقاسيمَ عازفٍ آخرَ. لأنَّها لمْ تكنْ تقاسيمَ تقليديةً. وهذا ما أدهشَ الفنانينَ والجمهورَ على السَّواءِ.

لمْ يكنْ **"سُوقُ الحَشيشِ"** - وهو سُوقٌ للخضارِ واللحومِ والبقولِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الحاجيَّاتِ - بعيداً عَنْ دارِنا لأنهُ قريبٌ جداً مِنْ قلعةِ حِمْصَ. ولأنهُ سُوقٌ مليءٌ بالناسِ كانَ لا بُدَّ مِنْ أنْ يكونَ فيهِ مقهى لتقديمِ خدماتِ الشَّاي والقَهوةِ واليانسونِ والنَّعْناعِ والتُّنْباكِ للباعَةِ والشارينَ، والتُّجارِ والمُقاولِينَ.

ولمَّا كانَ السُّوقُ يقعُ ضمنَ أسوارِ حِمْصَ القديمــةِ التاريخيَّةِ فقدْ كانتْ لهُ لياليهِ الجميلةُ مِنْ خــلالِ "**قَهْوَتِــهِ**" التي كانوا يُسَمُّونَها "**قهوة الجنينة**".

هنا.. في هذهِ القهوةِ الشعبيَّةِ كنتُ أعزفُ، وأغنِّي، وأفتِنُ الناسَ لقاءَ قروشٍ قليلةٍ أساعدُ بها والدي، وأُعيــلُ أسرتي الفقيرةَ.

وهنا.. في هذهِ القهوةِ جلستُ لياليَ كثيرةً إلى جانبِ المطربِ المِصْريِّ النابغِ "**محمد بخيــت**" لأعــزفَ لــهُ، ومعَهُ، على بُزُقي، فأُدْهِشَهُ في كلِّ ليلةٍ بما لمْ يَسْمَعْهُ فــي الليلةِ السَّالفةِ. وكانَ هوَ يَجودُ على الحــضورِ بمــا لــمْ يَسمعوهُ منْهُ مِنْ قَبْلُ.

كانَ الشيخُ محمد بخيت "يُــسَلْطِنُ" بعزفــي، وأنــا "أُسَلْطِنُ" بغنائِهِ. كنَّا نُبدِعُ لأنَّنا كنَّا نعزِفُ أرواحَنا. غيــرَ أنَّني كنتُ أرتقي سُلَّمَ الإمارةِ درجةً درجةً نحوَ العرشِ.

وتدورُ الأيامُ. وتَكِرُّ الليالي. ويكبرُ عمري. ويبقــى جسدي على حالِهِ، ضئيلاً، قَزَماً. لكنَّ أحلامي وطموحاتي

وإبداعي كانت أكبرَ مِنْ عمري وجسدي وواقعي، حتَّى كانَ عامُ **١٩٣٣م**، حيثُ سَعِدَتْ حِمْصُ بتأسيسِ نادي **"دوحة الميماس للموسيقا والتمثيل"** بمبادرةٍ مِنَ المُثقَّفينَ الوطنيِّينَ الأحرارِ، والفنَّانينَ، والأدباءِ، وقدْ حملوا جميعاً على عاتِقِهِم مَهَمَّةَ النِّضالِ الوطنيِّ مِنْ أجلِ تحريرِ سوريَّةَ مِنَ الاحتلالِ الفرنسيِّ، ومقاوَمَتِهِ ثقافيَّاً بإشاعةِ التُّراثِ الغنائيِّ العربيِّ بينَ الناسِ ضمنَ نشاطاتٍ ثقافيَّةٍ منظَّمةٍ، وحفلاتٍ راقيةٍ بعيداً عنِ المقاهي ودورِ اللَّهْوِ الليليَّةِ.

كانَ "دوحةُ الميماسِ" نادياً يَضمُّ جميعَ شرائحِ المجتمعِ الحِمصِيِّ، ومختلفَ طوائِفِهِم مِنْ دونِ أيِّ تَفرِقَةٍ في الدِّينِ أو المذهبِ أو الطبقةِ الاجتماعيَّةِ. لقدْ كانَ هَمُّ المُؤسِّسينَ بناءَ الإنسانِ المعافى في روحِهِ وعقلِهِ؛ ولهذا أحبَبْتُ النادي.

وكيفَ لا أُحِبُّهُ، وقدِ استعارَ اسمَهُ مِنْ مجلَّةٍ أدبيَّةٍ، ثقافيَّةٍ، اجتماعيَّةٍ كانتْ تُصْدِرُها في حِمْصَ السَّيِّدةُ الفاضلةُ **"ماري شقرا"** أواخرَ عشرينيَّاتِ القرنِ العشرينَ.

ثمَّ توقَّفَتِ المجلةُ بعدَ صدورِ أعدادِ سنةٍ كاملةٍ. لقدْ كـــانَ اسمُ المجلةِ "دوحة الميماسِ". وهاهو النادي يتابعُ مهامَّهُ، مكمِّلاً طريقَ المجلةِ!.

كانتِ المَهَمَّةُ عظيمةً ونبيلةً. لأنَّ الثَّقافةَ الوطنيَّــةَ، والقوميَّةَ، لا تَقِلُّ أهميةً عنِ الرَّصاصةِ في المَعركةِ العامَّةِ التي انطلقتْ ضِدَّ الفرنسيِّينَ لتحريرِ التُّرابِ السُّوريِّ.

لهذا كلِّهِ **انتسبتُ إلى نادي "دوحةِ الميمــاسِ"** بــصفةِ عازفٍ على آلةِ البُزُقِ **عامَ ١٩٣٤م**، فإذا بي أُتقنُ أصولَ غناءِ المُوَشَّحاتِ والأدوارِ والقصائدِ زيادةً على ما أُتقــنُ منْ فَنِّ الموسيقا والغناءِ الشَّعْبيَّيْنِ. وإذا بي أتعرَّفُ علــى كبارِ عازفي حِمْصَ ومطربيها الذينَ لمْ أكــنْ أعْــرِفُهُم. ناهيكَ عنْ مُثقَّفيها وأدبائِها وفنَّانيها أمثالِ **"رضــا صــافي ومراد السباعي وأنيسِ الملُّوحي ومظهر طُلَيْمات ويوسُــف شاهين ومصطفى الرَّباط وســركيس "ســرّي" طنبــورجي"** وغيرِهِمْ، لأنَّ كثيرينَ مِنْ أولئكَ المطــربينَ والعــازفينَ أعضاءِ النادي لمْ يعملوا في تلكَ المقــاهي الليليَّــةِ، وإنْ

عملَ بعضُهُم في سهراتِ الطَّـــربِ المُعتَبَـــرَةِ الخاصَّـــةِ بأغنياءِ حِمْصَ، وأُسَرِها العريقةِ بثرائِها.

ولأنَّ النادي كانَ مركزَ إشـــعاعٍ وطنـــيٍّ تحـــرُّريٍّ وحضاريٍّ فقدْ **لحَّنْتُ مقطوعةً موسيقيَّةً سَـــمَّيْتُها "دوحـــة الميماسِ" تكريماً لهُ،** حينَ انتقلتُ إلى دمـــشقَ، وتمكَّنـــتُ مِنْ إبداعي.

وإذْ أذكرُ ذلكَ فلا بدَّ مِنْ أنْ أذكرَ صديقاً كانَ يُحبُّني لشخصي ولِفَنِّي. أسهرُ في بيتهِ، وأنامُ عندَهُ، ونجلسُ فـــي المقهى نتحدَّثُ في الشِّعرِ والموسيقا والأدبِ والسِّياسةِ.

ولأنَّهُ كانَ يتبعُني مثـــلَ ظلِّـــي فقـــدْ أصـــرَّ علـــى الانتسابِ إلى نادي دوحةِ الميماسِ وادَّعى أنـــهُ ضـــاربُ رقٍّ، أو دُفٍّ. ولِحُسْنِ حظِّهِ أنَّهمْ لمْ يختبروهُ لأنَّـــهُ كـــانَ معي. كانَ همُّهُ الوحيدُ أنْ يبقى إلى جانبي. كـــانَ يقـــولُ لي ولأصدقائِنا:

- أنا أعيشُ بعزفِكَ يا محمد.

لمْ يكنْ يكذبُ. ولمْ يكذبْ عليَّ يوماً. وقــد امتــدَّتْ صداقتُنا حتَّى يومِ وفاتي. كانَ وفيّاً، ومخلصاً، وأميناً.

إنهُ **أحمد الجندي**؛ الشَّاعرُ والأديبُ، الذوَّاقَةُ للفــنِّ، الألمَعِيُّ الذي عشتُ معهُ في حِمْصَ - بعــدَ مَقْدَمِــهِ مِــنْ "**سَلَمْيَةَ**" للدِّراسةِ - أحلى أيامي، كما عــشتُ معــهُ فــي دمشقَ ألقَ الإمارةِ والمجدِ والشُّهرةِ.

(٤)

على ضفافِ بردى

بدتْ تلكَ السَّنواتُ في منتصفِ ثلاثينيَّـــاتِ القـــرنِ العشرينَ أشبهَ بمعجزةٍ. لقد انفتحتْ أمامي أبوابٌ لَطالمـــا أُغْلِقَتْ أمامَ الكبارِ مِنَ العازفينَ. وها أَنَذا أدخلُ عَبْرَهـــا إلى فضاءاتٍ مِنَ الأحلامِ الخياليَّةِ رغـــمَ أنَّهـــا واقعيـــةٌ. ولَسوفَ تُصبحُ مِنْ بَعْدُ كذلكَ.

في دمشقَ عزفتُ وغنَّيْتُ. شَقِيتُ وَجُعْتُ. لكنَّني لمْ أيأسْ، ولمْ أتخاذلْ. ولمْ أكنْ أنقطعُ عَنِ التـــدريبِ لحظـــةً واحدةً، لأنَّني كنتُ أخطِّطُ لِمستقبلي في أنْ أكونَ عازفـــاً مشهوراً تعرِفُني الدُّنيا كلُّها.

في تلكَ السَّنواتِ زارتْ دمشقَ فرقةٌ موسيقيَّةٌ فيها مطربونَ كبارٌ. وكانَ يرأسُ هذه الفرقةَ عازفُ البيانو السُّوريُّ الحلبيُّ الشَّهيرُ "**كميل شمبير**" ذو السُّمعةِ العظيمةِ في مِصْرَ، ومعهُ عازفُ الكمانِ السُّوريُّ الأكثرُ شهرةً "**سامي الشّوا**". وكانَ مطربُ الفرقةِ المِصْرِيَّةِ الشَّيخُ "**أحمد إدريس**" ذو الصَّوتِ الشَّجيِّ. أمّا أنا فكنتُ يومَها عازفاً. أعزفُ كما يعزفونَ؛ "**سماعيَّاتٍ - لونْغاتٍ - بَشارِفَ - تَحميلاتٍ - مُوَشَّحاتٍ - قُدوداً - أدواراً - وتقاسيمَ ارتجاليَّةً**. لكنَّ شيطانَ الإبداعِ الذي يسكُنُني كانَ يتطاولُ على التقاليدِ الموروثةِ فإذا بإبداعي يتمرَّدُ ويطفو على السَّطحِ واضحاً، لافتاً انتباهَ الجميعِ.

هكذا فجأةً أَراني وحدي أمامَ الجمهورِ منفرداً بِبُزُقي الصَّدَّاحِ وأنا أغنِّي أغنيةَ "أمّ كلثوم" الرائعةَ التي **أَلَّفَها أحمد رامي، ولحَّنها محمد القصبجي.**

إنّ حالي في هواها عَجَبٌ، أيٌّ عَجَبِ

ليسَ يُرضيني رِضاها ثمَّ يُشقيني التَّعَبِ

لمْ تكنْ دمشقُ تشبهُ حِمْصَ - أو غيرَهَا مِنَ المـــدنِ السُّوريَّةِ الأخرى - لأنَّها العاصمةُ، وفيهـــا نهـــرُ بـــردى عشيقُ الشُّعراءِ والفنَّانينَ، وفيها غوطَتُهُ السَّاحرةُ الفتَّانَةُ، والجامعُ الأُمَوِيُّ، وجبلُ قاسيونَ، وقبـــرُ صـــلاحِ الـــدينِ الأيُّوبيِّ مُحَرِّرِ بيتِ المقدسِ وفلسطينَ مِـــنَ الـــصَّليبيِّينَ، وفيها كثيرٌ كثيرٌ ممّا لا يتوافرُ في غيرِها مِـــنَ المَعـــالِمِ التَّاريخيَّةِ في العالَمِ.

أَلَيْسَتْ دمشقُ أقدمَ عاصمةٍ مأهولـــةٍ فـــي التـــاريخِ؟، وأولَ عاصمةٍ للدَّولةِ العربيةِ الإسلاميَّةِ، دولةِ الأُمَـــويِّين؟. ناهيكَ عَنِ المثقَّفينَ الَّذينَ يتوافدونَ إليها مِنْ أنحاءِ الـــبلادِ السُّوريَّةِ والعربيَّةِ طلباً للعِلْمِ والمعرفةِ والفـــنِّ والإبـــداعِ والشُّهرةِ، فلمْ تبخلْ عليهمْ جميعاً؟!.

هنا.. في دمشقَ.. صرتُ أعزفُ في مقهى **"النُّوفَرَةِ"** الكائنِ خلفَ الجامعِ الأمويِّ العظيمِ الذي كانَ يَمُدُّني بطاقةٍ روحانيَّةٍ خلاّقةٍ. وكانتْ فُسيفساؤُهُ المدهشةُ تَمُدُّني بتلاوينَ وتنويعاتٍ في مشاعري وأحاسيسي وأفكاري، لِتَنعكسَ في

عزفي بينَ فصولِ "**الحكواتي**" أو "**الكركوزاتي**"، فيستمتعُ الناسُ دهشينَ لِما - ومِمَّا - يسمعونَ، حتَّى طارَ صيتي بينَ الناسِ فطلبوني لأفراحِهِمُ الكبيرةِ.

وما دامَ المَرْءُ يخالطُ أُناساً كثيرينَ فإنَّهُ لابدَّ لهُ مِنْ أنْ يتورَّطَ ذاتَ مرّةٍ حتَّى يأتيَ أحدٌ فيُنقذَهُ برعايةٍ إلهيَّةٍ عادلةٍ. لكنَّني سأعترفُ بأنَّ أيَّ ورطةٍ حدثتْ لي إنَّما كانتْ بسببِ مِزاجِيَّتي المُفْرِطَةِ.

"**عبدو العابد**" - ضابطٌ، ورئيسُ قِسمِ شرطةِ حيِّ **المَيدانِ**؛ أحدِ أهمِّ أحياءِ دمشقَ العريقةِ - أنقذني مِنْ ورطةِ مِزاجي الذي سوفَ يظلُّ يتحكَّمُ بسلوكي الفنيِّ الإبداعيِّ حتَّى مَماتي. هذا المِزاجُ الذي لولاهُ لما كنتُ "أميرَ البُزُقِ"، ولَكنتُ مجرَّدَ عازفٍ صغيرٍ يتناقَلُهُ الناسُ مثلَ أيِّ بضاعةٍ لحاجيَّاتِهمْ مِنْ دونِ احترامٍ وتقديرٍ، لِيعزِفَ لهُمْ كالآلةِ في أيِّ لحظةٍ يريدونَ. ولنْ أُخفيَ عنكمْ يا أصدقائي أنّ الفنَّانَ في ذلكَ الزّمنِ كانَ غيرَ مُحترَمٍ كما هو اليومَ.

كانَ "عبدو العابد" ذوّاقَةً للموسيقا بأصالةٍ. وكانــتْ ورطتي كبيرةً معَ أحدِ أَغَواتِ حيِّ المَيدانِ. وقــدِ اتَّفَقْــتُ معَ هذا الآغا على أنْ أعزِفَ في فَرَحٍ لهُ لمُــدّةِ أســبوعٍ كاملٍ حسبَ تقاليدِ تلكَ الأيامِ.

لمْ أَعُدْ أتذكّرُ أكانَ الفرحُ زواجاً، أمْ خِتاناً، أمْ عَوْدَةً مِنْ حَجٍّ، أمْ شيئاً آخرَ. ولكنَّني أتذكّرُ أنَّنا اتَّفقنــا يومَهــا على الإقامةِ في بيتِهِ آكلاً - شارباً طيلةَ أيــامِ الأســبوعِ، وأنْ يُعْطِيَني لَيْرتَيْنِ ذهبيَّتَيْنِ.

أمّا الورطةُ فأنا المسؤولُ عنها. لقدْ وقفَ مِزاجــي الفنِّيُّ الإبداعيُّ سَدّاً منيعاً أمامَ أنْ أكونَ آلةً تــدورُ كمــا يريدُ الآغا، ووقتَ ما يشاءُ.

وهكذا لمْ أعزفْ نغمةً واحدةً طوالَ الأســبوعِ، والآغــا يَصبْرُ ويتحمَّلُ على مَضَضٍ أمامَ مَدْعُوّيــهِ وضــيوفِهِ مِــنْ أكابرِ دمشقَ كلِّها، وأنا أمانعُ لأنَّ مِزاجي يمنَعُني مِنَ العــزفِ أمامَ أناسٍ يأتونَ للتهنئةِ أوَّلاً، لا لِيسمعوا عزفي.

وهكذا انقضى الأسبوعُ. فإذا بالآغا يغضبُ غـضباً عارماً ويطرُدُني مِنْ بيتِهِ مِنْ دونِ أنْ يـدفعَ لـي قرشـاً واحداً مِنْ أُجرتي، فخرجتُ حزيناً، مطـروداً مِـنْ جنَّـةِ النَّعيمِ والدَّلالِ والرَّفاهيَةِ، وأنا في أَمَـسِّ الحاجـةِ إلـى النُّقودِ، لا أدري ماذا أفعلُ.

ثُمَّ رأيت أن أشتكي على الآغا. سأشـتكي وأقـولُ للشُّرطةِ: لستُ آلةً. ولنْ أعزفَ متـى يرغـبُ النـاسُ ويشاءون. بلْ حينَ أُريدُ أنا.

مَضَيْتُ إلى مَخفرِ الشُّرطةِ وقابلْتُ الضَّابطَ "عبـدو العابد" الذي شرحتُ لهُ ورطتي ومُصيبتي معَ الآغا. فمـا كانَ منهُ إلاّ أنْ ضحكَ مِنْ قلْبِهِ كما يقولونَ، لأنَّني **خَرَّبْـتُ** فَرَحَ الرَّجُلِ بِمِزاجِيَّتي. ولمْ أعزفْ نغمةً واحدةً لأتقاضى عنها أيَّ أجْرٍ.

صَمَتَ الضَّابطُ قليلاً ثمَّ قالَ لي: لو فَعَلَها أحدٌ غيرُكَ يا محمدُ لعاقبتُهُ، لأنّهُ يطالبُ بأجْرٍ مِنْ دونِ عملٍ. ولكنَّكَ مختلفٌ عَنِ الآخرينَ. أنتَ مبدعٌ وعبقريٌّ فـي العـزفِ

والموسيقا والغناءِ. وأنا أحترمُكَ. سأتوسَّطُ لكَ عندَ الآغا، وسأُحَصِّلُ مبلغاً مِنَ المالِ. وما هيَ إلاّ أيامٌ حتَّى دفعَ لي الآغا بعضاً مِنْ أَجْري.

لكنَّ الأكثرَ أهمِّيَّةً مِنْ ذلكَ كلِّهِ أنَّني اكتشفتُ مُصادَفَةً إنساناً يُقدِّرُني لِشخصي ولِفنِّي. ولهذا سوفَ يُصبحُ "عبدو العابد" أعزَّ أصدقائي. ولَسوفَ يدعوني للإقامةِ في بيتِهِ في حيِّ **"القنوات"**، وقدْ تحوَّلَ هذا البيتُ آنذاكَ إلى مُنتدى للفنِّ والسَّماعِ الرَّاقي، حيثُ استقبلَ فيهِ كبارَ شُعراءِ وأدباءِ وكتَّابِ وسياسيِّي دمشقَ ومُثَقَّفيها.

في بيتِ "عبدو العابد".. تعرَّفتُ على كثيرٍ مِنْ أولئكَ المُبدعينَ. ولكنَّ أهمَّهُمْ لي كانَ عميداً مِنْ عُمَداءِ دمشقَ الشَّامِ المحروسةِ برجالِها العِظامِ على مدى الأيامِ.

كانَ ذاكَ العميدُ هو **"فخري البارودي"**، أحدُ سكانِ حيِّ القنواتِ. لقدْ أُعْجِبَ الرَّجلُ بي وأُعْجِبْتُ بهِ. كلانا يعشقُ الموسيقا والشِّعرَ والنُّكْتَةَ والمَرَحَ. ولَسوفَ

يَدعوني الرَّجلُ الكبيرُ إلى دارتِهِ الجميلةِ في "**كيوان**" لِيَسمعَ عزفي، وهو المفتونُ بالفنِّ والفنَّانينَ، قَدْرَ افتتانِهِ بالكُتَّابِ والشُّعراءِ والمُبدعينَ. وهذا الرَّجلُ هو الذي سوفَ يكتشفُ مُطرِبَنا الكبيرَ "**صباح فخري**"، وسوفَ يَمنَحُهُ الجزءَ الثانيَ مِنِ اسْمِهِ الفنيِّ "فخري"، وهو اسمُ فخري البارودي!!.

فخري البارودي - القامةُ العظيمةُ، والنَّائبُ في مجلسِ النوَّابِ السُّوريِّ "البرلمان" - كانَ أكبرَ بكثيرٍ مِنْ كَوْنِهِ نائباً. كانَ إنساناً وطنيَّاً أوَّلاً. ولأنَّهُ كذلكَ فهوَ يرى الناسَ سَواسِيَةً. ولهذا لمْ ينظرْ إلى عزفي رغمَ براعتي بِمَعْزِلٍ عَنْ جسدي الذي لا حولَ لي فيهِ ولا قوَّة. بلْ نظرَ إلى إنسانِيَّتي. إلى الإنسانِ الذي في داخلي فأحببتُهُ، ولبَّيْتُ جميعَ دعواتِهِ التي كانَ يُقيمُها في دارتِهِ بكيوانَ وقدْ دعا إليها الوزراءَ والأعيانَ والأدباءَ والفنَّانينَ والسياسيِّينَ وغيرَهم ممَّنْ يعشقونَ الأدبَ والفنَّ. ذلكَ كلُّهُ فعلَهُ طلباً لِصداقتي.. وفنِّي.

غيرَ أنَّني ما زلتُ أمارسُ مِزاجيَّتي في صُحبةِ فخري البارودي رغمَ صداقتِنا ومودَّتِنا، وكانَ يقدِّرُ ذلكَ خيرَ تقديرٍ.

أذكرُ مرَّةً أنهُ دعاني إلى دارتِهِ للعزفِ أمامَ ضيوفهِ فحضرْتُ متأخِّراً وأنا أرتدي "طَقماً" جديداً، فاخراً، وأحملُ عصايَ القصيرةَ كأنَّني ضابطٌ كبيرٌ برتبةِ "جِنرالٍ" كما يقولونَ. ومَنْ يراني سوفَ يُخمِّنُ أنَّني أقولُ في داخلي: " **يا أرضُ اشتدّي ما حَدا قدّي**" حَسْبَ المثَلِ الشعبيِّ. وقدْ كنتُ كذلكَ حقّاً.

دخلتُ وجلستُ حيثُ يجبُ أنْ أجلسَ. في صَدْرِ البيتِ تماماً - كما فعلَ الفارابيُّ الفيلسوفُ والموسيقارُ حينَ دخلَ على سيفِ الدَّوْلةِ الحَمْدانيِّ - والنَّاسُ ينظرونَ إليَّ.

لَفَفْتُ رِجْلاً على رِجْلٍ، وَرُحْتُ أتأمَّلُ المَدْعُوِّينَ واحداً فواحداً وهم يُحَدِّقونَ بي. وما هيَ إلاّ دقائقُ حتَّى رحَّبَ البارودي بضيوفهِ، وبي، وطلبَ منّي أنْ أُمتِّعَ الحضورَ

بعزفي، فامتَنَعْتُ بكبرياءٍ رغمَ إلحاحِ كثيرٍ مِنَ الضيوفِ. لقدْ غَلَبَتْني مِزاجيَّتي. وما كانَ أحلاها في أوقاتٍ كهذهِ!!.

أكرَهُ أنْ يُحِبَّني النَّاسُ لِعزفي، وغنائي، وإبداعي. أُريدُهُم أنْ يُحِبّوني لِشخصي، رغمَ ضآلةِ جسدي، لأنَّني إنسانٌ أوّلاً، ولأنَّني أتكلَّمُ مثلَهُم في الشِّعرِ والفنِّ والسَّياسَةِ. ولديَّ روحٌ طيِّبَةٌ شفَّافةٌ للتَّنْكيتِ والمُزاحِ لا تَقِلُّ عَنْ أرواحِهِم وشفافيَّتِهِم أنا الذي لحَّنْتُ وغنَّيْتُ لكبارِ شُعراءِ الفصحى: **أبو سلمى - البهاء زهير - فخري البارودي - فدوى طوقان - حسن البحيري - بدر الدين الحامد - عمر أبو ريشة**. كما لَحَّنْتُ وغَنَّيْتُ لكبارِ شعراءِ العاميَّةِ: **جلال زريق - محمد التابعي - محمد على فتّوح - عمر حلبي - عمر الزعني**. وغيرُهُم كثيرٌ كثير.

هلْ أنا مُخطئٌ في ذلكَ؟!. لا أدري. لكنَّ ما أَدريهِ أنَّ الاحترامَ يكونُ للإنسانِ أوّلاً، ثمَّ تأتي الأمورُ الأُخرى. ولَعلَّهُما يندمِجانِ معاً؛ الإنسانُ والإبداعُ. لكنَّ

كثيراً مِنَ الناسِ ينظرونَ إلى الفنِّ قبلَ الإنـسانِ، وهـذا ما كنتُ أكرَهُهُ، وأرفُضُهُ!.

هلْ أنا مخطئٌ ؟!. وهلْ أدافعُ عَنْ قَزَميَّتي؟. عَـنْ صِغَرِ جسدي بالنسبةِ للأَسوياءِ مِنَ النَّاسِ الآخرينَ؟. هلْ أنتقمُ منهم؟.

إنَّني أُشْهِدُ اللهَ على براءَتي مِنْ ذلكَ كلِّهِ. لقدْ كنـتُ كبيراً بينَي وبينَ نفسي لأنَّني رَضيتُ بما أنعمَهُ اللهُ عليَّ، ورَضيتُ بمشيئَتِه. ولكنَّ بعضَ النَّاسِ يتعالى على مشيئةِ اللهِ فَيَسْخرُ مِنْ خَلْقِه، متجاهلاً أنَّ اللهَ كَرَّمَنا باسـتخلافِنا على الأرضِ، وجَعَلَنا شـعوباً وقبائـلَ لِنتعـارفَ، وأنَّ أكرَمَنا عندَ اللهِ أتقانا!.

لعلّي كنتُ مخطئاً. لعلّي. ولكنْ... هذا مـا كـانَ يـا أصدقائي. هذا ما كانَ. ولولا ذلكَ - حَسْبَ اعتقادي - لما كنتُ أميراً للبُزُقِ، كما **أحمدُ شوقي أميرٌ للشُّعراءِ**. بلْ لَكُنْتُ مجـرّدَ آلةٍ تَصْدَحُ مِنْ دونِ روحٍ أو أحاسيسَ أو مشاعرَ.

(٥)
سِندباد

لمْ يكنْ هاجسُ التَّرْحالِ منْ مكانٍ إلى آخرَ يفــارِقُني مُذْ كنتُ يافعاً. وها أنذا اليومَ أُحِسُّهُ يدفعُني إلـــى عـــوالمَ مجهولةٍ، معلومةٍ، تمامـــاً كالـــسِّنِدِباد؛ مجهولـــةٍ لأنَّنـــي لا أعرفُها، ومعلومةٍ لأنَّ الأعمَّ الأغلبَ مِنَ الفنّانينَ كانوا جوّالينَ في أقطارِ الوطنِ العربيِّ طلباً للـــرِّزقِ والـــشُّهرةِ والمجدِ. غيرَ أنَّني كنتُ قدْ أصـــبحتُ مـــشهوراً، ذائـــعَ الصِّيتِ، مما جعلَ الفنَّانينَ والأدباءَ والرؤساءَ والملـــوكَ يرحِّبونَ بي ويستقبلونَني في بيوتِهم وقصورِهم.

أما هاجسُ التَّرحالِ الأولُ فكانَ طلبـــاً للاستـــشفاءِ. وهكذا قصدتُ ألمانيا في العام ١٩٢٨م. ولمّا أيقنـــتُ أنْ

لا علاج لي اتصلتُ بشركةِ "أوديون" التي أقامتْ لي عدداً من الحفلاتِ، وسجّلتْ لي خمسَ أسطواناتٍ تضمنت عديداً من الارتجالاتِ الموسيقية. ثمَّ إنني غادرتُ ألمانيا إلى فرنسا عام ١٩٢٩م، فإيطاليا التي لقّبني فنانونها بلقبِ "بَغانيني العرب".

وأمّا هاجسُ التَّرحالِ الدائمُ فلمْ يكنْ بيدي. بلْ لمْ يكنْ وليدَ مصادفةٍ. لقدْ ورثْتُهُ منْ أصولِ **عشيرتي الغَجَريَّةِ** التي أنتمي إليها، والتي استقرَّتْ في حِمْصَ منذُ زمنٍ بعيدٍ. لكنّ عشيرتي - رغمَ استقرارِها - ظلّتْ تسافرُ وترتحلُ في بلادِ اللهِ الواسعةِ. في الأريافِ والبوادي، والحواضرِ، والضَّواحي، لِتعزفَ وتغنّيَ في الأفراحِ، وتُقيمَ اللياليَ المِلاحَ، لِيَسْعَدَ الناسُ ويفرحوا، لقاءَ مالٍ قليلٍ وطعامٍ وفيرٍ. ولقدْ كنّا مطلوبينَ على الدَّوامِ، لأنّ والدتي "عماشة" كانتْ ذاتَ صوتٍ جميلٍ. هي تغنّي وأبي وأخواي يعزفونَ لها. وكذلكَ كانتْ زوجُ أبي الأولى؛ أمُّ سليمٍ ومحمدٍ أخَوَيَّ منْ والدي.

ما يمتازُ به الغَجَرُ يا أصدقائي مـــنْ غيـــرِهِم مِـــنَ الناسِ هو عشقُهُم للسَّفرِ والتِّرحالِ في أيِّ أرضٍ مِنْ بلادِ اللهِ مِنْ دونِ خوفٍ أو وَجَلٍ.

أمَّا عشقُهُم للموســيقا، وللفــضاءِ الرَّحْــبِ الــذي لا سلطانَ لأحدٍ عليهِ، حيثُ لا يوجدُ مَلِــكٌ، ولا رئـــيسٌ، ولا شُرطيٌّ، فأمرٌ لا يُمكنُ وَصْفُهُ.

يَحْتَمِلُ الغَجَرِيُّ يومَه كـــاملاً مِـــنْ دونِ أكـــلٍ ولا شُرْبٍ. لكنَّهُ لا يَحْتَمِلُ نَفْــسَهُ لحظـــةً واحـــدةً مِـــنْ دونِ موسيقا. إنَّهُ يعزفُ لنفسِهِ. لروحِهِ. إنَّهُ يعـــزفُ وُجـــودَهُ، وكَينونَتَهُ. ولهذا هو سعيدٌ حيّاً ومَيْتاً. لأنَّ الدنيا لا تُساوي لديهِ شيئاً. ولهذا أيضاً تراهُ لا يَأْبَهُ بالموتِ فيدفِنُ أبنـــاءَهُ وأحبابَهُ، في أيِّ أرضٍ مِنْ دونِ أنْ يُقيمَ لهُمْ قبراً تقليـــديَّاً، ثمَّ يَمضي خلفَ أنغامِهِ وألحانِهِ لا يُبالي بشيءٍ آخرَ!.

والغَجَرُ مطلوبونَ في أيِّ أرضٍ حلّوا بها، ما داموا يعزفونَ ويغنّونَ ويرقصونَ. ولعلَّ هـــذا التَّرحـــالَ فـــي البراري والأريافِ، والاختلاطَ بالنَّاسِ مِنْ كلِّ الأجنـــاسِ

قدْ فَتحَ في أرواحِ الغجرِ بَوَّاباتٍ واسـعةً، رَحْبَـةً، نحـو السَّماءِ بنجومِها وغيومِها. بشمـسِها وقمرِهـا، فجـاءتْ أصواتُهُم قويَّةً، حادَّةً. خاصَّةً أصواتَ نسائِهِم المغَنِّيـاتِ. وجاءتْ موسيقاهُمْ طليقةً مِنْ كلِّ قانونٍ أو تقليدٍ، فإذا هي عفويَّةٌ، متحرِّرَةٌ، يَتراقصُ فيها الحِسُّ الـشَّعبيُّ ببكارتِـهِ الطَّازَجَةِ، وتَتدافعُ فيهـا الإيقاعـاتُ مُدوِّيـةً، صـاخبةً، مُسْتَرْسِلةً لِتَملأَ الفضاءَ الرَّحيبَ مِنْ دونِ توقُّفٍ.

لقدْ كُنّا - نحنُ الغَجَرَ - وما زِلْنَا، أسـيادَ الموسـيقا الارتجاليَّةِ في بِقاعِ الأرضِ كلِّها. **وإنَّني لأَفْخَـرُ بانتمـائي إلى عشيرتي الغجريَّةِ** التي أرضَعتْني حليبَ الحرِّيَّةِ ألحاناً وإيقاعاتٍ ورقصاً، فإذا بي مبدعٌ فوقَ كـلِّ المبـدعين. ولهذا أتباهى بأصْلي وفصْلي رغمَ قولِ الشاعرِ العربيِّ:

لا تَقُلْ أصْـلي و فَصْلي أبداً　　إنَّما أَصْلُ الفَتَى ما قدْ حصَلْ

وها أنذا قدْ فَخَرْتُ بأصلي، وبعزفي، وفعلـتُ مـا أسعدَ الناسَ وأفادَهم.

وها أنذا أعترفُ بأنَّ هذا الشِّعرَ هو الـذي جعلنـي لا أُعيرُ جسدي القَزَمَ أدنى اهتمامٍ. ولمْ يُـشَكِّلْ لـي أيَّ عِبءٍ، أو إعاقةٍ، أو كآبةٍ، رغمَ تَمَنِّياتي أنْ أكـونَ سـويّاً مثلَ جميعِ الناسِ، لأنَّني كنتُ أسعى إلى الكمالِ في كـلِّ شيءٍ. ولِلَّهِ وحَدَهُ الكمالُ.

لقدْ عشتُ كبيراً بأحلامي الكبيرةِ، كما عشتُ كبيراً بأعمالي العظيمةِ، رغمَ أنَّ بعضَهم كانَ ينظرُ إليَّ ويقولُ في سِرِّهِ: **كلُّ ذي عاهةٍ جبّارٌ**!!.

أَيَّةُ عاهةٍ هذهِ الَّتي يتكلمُ عنها مثلُ هـؤلاءِ، وأنـا لا يَنْقُصُني عُضوٌ منْ أعـضاءِ الجـسدِ؟. ولا يَنْقُـصُني الإبداعُ والمجدُ والشُّهرةُ، ولا صداقاتُ الكبارِ والـصغارِ مِنْ أبناءِ المجتمعِ؟.

ليسَ بي عاهةٌ. وإنَّما أصحابُ العاهاتِ همْ أولئـكَ العاطلونَ عَنْ تذوُّقِ الجمـالِ؛ جمـالِ الـورودِ، حركـةِ الغيومِ، جرَيانِ الماءِ، حفيفِ الأشجارِ، سقوطِ الأمطـارِ، هديلِ الحَمامِ وغيرِ ذلكَ مِنْ مَفاتنِ الطبيعةِ؛ أمِّنا العظيمةِ.

فما بالُكُم بسماعِ الموسيقا والنَّغَمات العِــذابِ بأرواحِنـــا وقلوبِنا لا بآذانِنا وحَسْبُ؟.

تلكَ العَطالةُ عَنْ تذوّقِ الجَمالِ هي الإعاقــةُ الَّتـــي لا يرضاها اللهُ لعبادِهِ، وقدْ مَنَحَهُم بكرَمِهِ عقولاً ومشاعرَ وأحاسيسَ لتذوُّقِ الجمالِ. ولكنَّ حِكمــةَ اللهِ فــوقَ كــلِّ اعتبارٍ.

(٦)
بحرُ بيروت

لمْ أكنْ قدْ عَرَفْتُ البحرَ كما عَرَفْتُهُ فـي بيـروتَ. كنتُ أسمعُ بِرَحابَتِهِ، وبأمواجِهِ الرَّقيقةِ والعاتِيَةِ. وأتخيَّـلُ مراكبَ الصَّيدِ والسُّفنَ التِّجاريَّةَ تَمْخُرُهُ بـشجاعةٍ كأنَّهـا سفنُ السِّندبادِ البحريِّ تُغامرُ فـي رحـلاتٍ لا تنتهـي. وأتخيَّلُ النِّسَاءَ السَّابحاتِ في مياهِـهِ، المُـستلقياتِ مـعَ أطفالِهِنَّ على رمالهِ الدَّافئةِ.

بحرُ بيروتَ هو الذي فتنَ مُخيِّلتي لِكَثْرَةِ ما سـمعتُ عَنْ بيروتَ نفسِها؛ بيروتَ الفنِّ والأدبِ والسِّياسةِ وكَسْبِ الرِّزْقِ الوفيرِ، بيروتَ المفتوحةِ على كـلِّ الجنِـسيَّاتِ، والآدابِ، والفنونِ، وعلى المجدِ والشُّهرةِ.

صحيحٌ أنَّني رأيتُ بحرَ طرطوسَ وبانياسَ في سوريَّةَ، ولكنَّهُ كانَ مُجَرَّدَ ماءٍ، لأنهُ كانَ وحيداً، عارياً، إلاّ منْ بِضْعَةِ مراكبَ للصَّيْدِ، وقليلٍ مِنَ الصَّيادينَ. وبعضِ المُصطافينَ مِنَ الأغنياءِ!.

كانَ ذلكَ في أواخرِ عشرينيَّاتِ القَرْنِ العشرينَ، ولمْ أكنْ قدْ تجاوزْتُ السابعةَ عَشْرَةَ منْ عمري، حيثُ وجدْتُ نفسي وحيداً في بيروتَ. غريباً أنا وبُزُقي وحقيبةُ ملابسَ صغيرةٌ بحجمِ جسدي، وسطَ حياةٍ جديدةٍ لمْ تأْلَفْها عينايَ في حِمْصَ أو في دمشقَ.

في مَلهىً متواضعٍ عزفتُ مثلَ جريحٍ فقَدَ أصدقاءَه وأصحابَهُ وأحبابَهُ وخلاَّنَهُ. طَرِبَ الناسُ وفرحوا وهتفوا وصفّقوا لعزفي فأشعروني بالأمانِ. وإذا بي وجهاً لوجهٍ أمامَ أشهرِ عازفِ طُنْبورٍ - بزقٍ - في لبنانَ آنذاكَ. إنَّهُ "**مُحيِ الدِّين بُعيُون**" الذي "طارَ عقلُهُ بعزفي، فتبنّاني وقدَّمَني إلى أهلِ الفنِّ والموسيقا والطَّربِ والإبداعِ مِنَ اللبنانيِّينَ والعربِ المقيمينَ والوافدينَ العابرينَ الذينَ

ما زلتُ أذكرُ أكثَرَهُم، أمثالَ: **جورج صائغ** - **متري المُــرّ** - **توفيق الصبَّاغ** - **سليمان الجاحظ** - **أحمد المنير**.

غيرَ أنَّ حكمةَ اللهِ ورحمتَهُ قدْ جمَعَتْني ثانيةً بعميـــدِ الموسيقا السُّوريَّةِ والعربيَّةِ الفنَّانِ "**كميل شمبير**" الحلبــــيِّ، وكانَ يعملُ يومَها في القاهرةِ لــــصالحِ **نجيـــبِ الرِّيحـــاني** الممثِّلِ الكوميديِّ العبقريِّ. كما عَمِلَ لصالحِ الممثلِ "**علي الكسّار**" وفرقةِ "**عُكاشة**". وجميعُهُم فنــــانو مــــسرحٍ كبــــارٌ يقدِّمونَ عروضَهُم في أرجاءِ الوطنِ العربيِّ.

لمْ يَتَوانَ "كميل شمبير" - وأنا ابنُ وطنِهِ الـــصغيرِ - عنْ تعريفي بالفنانِ المسرحيِّ اللبنانيِّ "**أمــين عطـــا الله**"، الشهيرِ بلَقبِهِ الذَّائعِ الصّيتِ "**كَـــشْكَشْ بيـــه**" فـــي مِـــصْرَ والوطنِ العربيِّ، والذي اصطحبني معهُ في جولاتٍ فنيَّـــةٍ إلى سوريَّةَ وفلسطينَ والعراقِ.

كنتُ أعزفُ بينَ فـــصولِ المـــسرحيّاتِ ليـــستريحَ الممثِّلونَ، أو لتغييرِ الدِّيكوراتِ، أو تبديلِ الملابسِ. وقـــدْ

أَكَسبني هذا العملُ خبرةً بأسرارِ العملِ المسرحيِّ مِنْ نصٍّ وتمثيلٍ وإخراجٍ ومناظرَ وغيرِها. كما أكسبني معرفةً بأساليبِ وطرائقِ التلحينِ للمسرحِ الغنائيِّ الذي أرسى دعائِمَهُ بعبقريَّةٍ فذَّةٍ الفنَّانُ السُّوريُّ الدِّمشقيُّ المبدعُ المرحومُ "**أحمد أبو خليل القبّاني**".

لقدْ فَتَحتْ بيروتُ أمامي أبوابَ السَّعدِ فَلَحَّنتُ كثيراً مِنَ الأغنياتِ لمطربينَ ومطرباتٍ أمثالِ: **ماري عكّاوي - ماري جبران - أسمهان - صالح عبد الحيّ - محمَّد عبد المطّلب - سعاد محمّد - نجاح سلام - ثريَّا حلمي - كروان - صباح فخري**.. وغيرُهُم كثيرٌ.

وإذْ تأتي الدُّنيا إليكَ عليكَ أنْ تَغْنَمَ الفرصةَ فلا تُضَيِّعَها. لقدْ كتبَ الشاعرُ "**حسامُ الدِّين الخطيبُ**" أغنيتَهُ الجميلةَ بالعاميّةِ السُّوريّةِ:

ليهِ الدَّلالْ وانتِ تحبينَي

واصليني مرَّةْ وكيدي عُزّالي

والتي لحَّنْتُها وغنَّيْتُها بــصوتي عــام ١٩٣٤م فــي حلبَ، فإذا بالأغنيةِ تطيرُ في أرجــاءِ الــوطنِ العربــيِّ بنجاحٍ باهرٍ حتَّى سَمِعَتْ بها "أمُّ كلثوم" فطلبتْهــا منــي. ولكنْ..... "ما صارْ نصيب"[٣].

(٧)

عَمَار.. يا مِصر

حينَ كانتِ المدنُ العربيَّةُ تَنْعَمُ بقَــدْرٍ لا بــأسَ بــهِ مِنَ الفنِّ كانتِ القاهرةُ - أمُّ الدنيا - تَفيضُ علــى المــدنِ العربيَّةِ كافَّةً بالفنَّانينَ المبدعينَ، كمــا كانــتْ تــستقبلهُم بحنانٍ. لِمَ لا، وبحرُ النِّيلِ العظيمِ كمــا تقــولُ أمُّ كلثــومٍ في إحدى أغنياتِها الجميلةِ:

يا مْسافرْ على بحرِ النيلْ أنـا لِيَّـا ﮲ في مـصرِ خَليـلْ

يتدفّقُ قويَّاً، غزيراً، لِيدعمَ غزارةَ إبداعِ المبــدعينَ مِــنَ المِــصريِّينَ والــسُّوريِّينَ والمَغاربــةِ والعــراقيِّينَ، وإذا المسارحُ عامرةٌ في كلِّ ليلةٍ بالنَّــاسِ ومختلــفِ أنــواعِ

الفنونِ الغنائيَّةِ والمسرحيَّةِ والسِّيركِ وغيرِها. فما بالُكم يا أصدقائي بالشِّعرِ والقصَّةِ والأدبِ؟.

كانَ "**كميل شمبير**" ينوي العودةَ إلى القاهرةِ عائداً منْ لبنانَ لمتابعةِ أعمالهِ في تلحينِ المسرحيَّاتِ الغنائيَّةِ. وكنتُ أحدّثُ نفسي: ماذا لو طلبتُ منهُ السَّفرَ معهُ إلى القاهرةِ ؟.

لا تتعجّبوا يا أصدقائي منْ سهولةِ السَّفرِ منْ قُطرٍ إلى آخرَ. إذْ لمْ يكنْ هناكَ حدودٌ بينَ الأقطارِ العربيَّةِ كما هي اليومَ. ولمْ تكنْ هناكَ جوازاتُ سَفَرٍ. ولا شرطةٌ على الحدودِ.

وهكذا سافرتُ معَ "كميل شمبير" بصحبةِ الشاعرِ الزَّجّالِ "**عمر الزعني**"، والمطربِ الشعبيِّ "**داود قَرَه نوح - حسني**"، والمطربة "**كوزَل - بلانش**"، وقدْ كانتْ مطربةً مشهورةً في لبنانَ، ولها صالةٌ للغناءِ باسْمِها.

في القاهرةِ انفتحتِ الأبوابُ أمامي. خاصةً أبوابَ شركاتِ الاسطواناتِ التي سمعَ مديروها باسمي

وبإبداعي، فإذا بي أسجِّلُ عديداً مِـــنَ الأُســـطواناتِ فـــي شركةِ "أوديون" بصوتي. وما زلتُ أذكـــرُ صـــدى تلـــكَ الأغنيةِ الرائعةِ "**أفديهِ إنْ حفظَ الهوى أو ضـــيَّعا**" بعـــدَ أنْ غنَّتْها أمُّ كلثوم بصوتِها السَّاحرِ.

هنا.. في القاهرةِ.. أَرغمَتْني رحلةُ الفـــنِّ الطويلـــةُ على تعديلِ اسمي الحقيقيِّ "عبد الكريم المرعي" إلى اســـمٍ فنّيٍّ. فاقترحَ عليَّ أحدُ الأصدقاءِ أنْ يكونَ اســـميَ الفنـــيُّ "كريم" فقط. وبعدَ التَّداولِ والمشاورةِ معَ الأصدقاءِ اتَّفَقْنا على اسمِ "**محمَّد عبد الكريم**" الذي التصقَ بي، واشْـــتَهَرْتُ بهِ، منْ دونَ أنْ يُضايقَني بِطولِهِ.

ولماذا أتضايقُ وهناكَ أمثالُـــهُ فـــي عـــالَمِ الغنـــاءِ والطربِ: **محمد عبد الوهاب - محمد عبد المطلب - محمد عبد الرحيم المسلوب - أبو العلا محمد**، وغيـــرُهُم، ممـــا يعني أنَّ الأسماءَ الفنيَّةَ لمْ تكنْ قدْ دَرَجَـــتْ بَعْـــدُ كثيـــراً للرِّجالِ قَدْرَ النِّساءِ. أمَّا المُهِمُّ فهـــو الإبـــداعُ ولا شـــيءَ سواهُ. وهذا ما أهَّلَني للعزفِ فـــي المـــسارحِ الكبيـــرةِ،

خاصَّةً دارَ الأوبِّرا الَّتي لا يقفُ على مـــسرَحِها إلاّ كـــلُّ عبقريٍّ مبدِعٍ، وقدْ فعلْتُها أنا.

نعمْ.. لقدْ فعلْتُها في القاهرةِ حيثُ كبـــارُ الملحِّنـــينَ والمطربينَ المبـــدعينَ أمثـــالِ: " **ســـيِّد درويـــش - ســـيِّد الصَّفْتي - داوود حسني - زكريَّا أحمد - محمد القـــصبجي - رياض السُّنباطي - محمد عبد الوهاب - فريد غصن - فريـــد الأطرش - أمّ كلثوم - أسمهان**".

فعلْتُها حيثُ كانَ سيِّدُ المسرحِ العربـــيِّ، وعميـــدُهُ، "**يوسف وهبي**"، وكبيرُ أدبـــاءِ مِـــصْرَ "**فكـــري أباظـــة**". وغيرُهما كثيرٌ.

هنا.. في القاهرةِ.. سوفَ أحوِّلُ مـــا تُخطـــئُ بـــهِ أناملي على الأوتارِ، رغماً عنِّي، إلـــى مَـــأْثَرَةٍ تَـــصْعَقُ الجميعَ وتُدْهِشُهم.

كنتُ ليلَتَها أعزفُ أمامَ كبـــارِ الفنَّـــانينَ والمثَّقفـــينَ وجمهورٍ ذوّاقٍ. وكانَ "يوسف وهبـــي" بقامَتِـــه المديـــدةِ

الضَّخمةِ وأناقتِهِ المعهودةِ يجلسُ إلى جوارِ "فكري أباظة" و"أمين عطا الله". وبينَما تتداحُ أصـابعُ كفِّـيَ اليـسرى بشيطانيَّةٍ مدهشَةٍ، سريعةً، مُبْهِرةً فـوقَ أوتـارِ البُـزُقِ خانتْني إحدى الأصابعِ وأخرجتْ نغمةً نشازاً. لكنَّني لـمْ أكترثْ بها، ولمْ أجفلْ أو أَرْتَبِكَ. بـلْ اسـتدركْتُ بثقـةٍ عظيمةٍ وبنيْتُ على النَّغمـةِ النَّـشازِ أفكـاراً موسـيقيَّةً تُشْبِهُها، حتَّى تحوَّلَ الموقفُ إلى ابتكارٍ مِنْ طِرازٍ جديـدٍ، غيرِ مألوفٍ، لأَنتهيَ كما ابتدأتُ بهِ بسلامٍ، ممّـا جعـلَ الجمهورَ يعتقدُ بأنَّ ما فعلتُهُ كانَ عنْ قَـصْدٍ. وهـذا مـا سَحَرَهُم، وفتَنَهم.

لكنَّ "يوسف وهبي" كانَ بحسِّهِ المرْهَفِ أذكى مِـنْ أنْ يُصَدِّقَ ما فعلتُ، لقدْ اكتشفَ الأمرَ، وقالَ لـي بعـدَ انتهاءِ الحفلِ بلهجتِهِ المصْريةِ الأرستقراطيَّةِ المـسرحيَّةِ: "أنتَ عملتَ شيئاً لمْ يعملْهُ فنَّانٌ قبلَكَ". فتبسَّمتُ، وسكَتُّ.

(٨)

بُزُقي إمارتي

قرأتُ ذاتَ مرّةٍ، أو سمعتُ، أنّ شاعرَنا العربيَّ العظيمَ **أبا الطَّيِّبِ المُتنبّي** قالَ متباهياً وقدْ ملأَ الدُّنيا وشَغَلَ الناسَ:

أنامُ مِلءَ عيوني عَنْ شَوارِدِها

ويَسْهَرُ الخلْقُ جَرَّاها ويختصِمُ

ولقدْ كانَ مُحِقّاً. فأشعارُهُ سِحْرٌ حلالٌ، يتألّقُ فيها الرَّجلُ الحالِمُ بالمجدِ والشُّهرةِ وهو يسعى إلى غاياتِهِ دونَ هَوَادةٍ.

ولقدْ كانَ مُحِقّاً لأنهُ مبدعٌ لا تَحُدُّه حدودٌ، ولا تَشْغَلُهُ التَّفاهاتُ، لأنَّهُ يرى نفسَهُ الشَّاعرةَ أوَّلاً، ويريدُ مِنَ

الآخرينَ أنْ يَرَوْهُ كما يرغبُ هو ويشتهي. فإذا هو يَمْزُجُ ببراعةٍ بينَ نفسِهِ وشِعرِهِ. وإذا هو فريدُ عصرِهِ، ووحيــدُ دهرِهِ!. وهاأنذا اليومَ أشعرُ شعورَ المتنبِّي، ولكــنْ مِــنْ دونِ طَمعٍ بولايةٍ، أو إمارةٍ كما فعلَ هو.

ما زلتُ أحفظُ بيتاً مِنَ الشِّعْرِ يمدحُ أحــدَ الخلفــاءِ فيقول:

أتَتْهُ الخِلافَةُ مُنْقادةً إليهِ تُجَرِّرُ أذيالَها

ولكنَّني لا أصدِّقُ أنَّ هذا الخليفةَ نالَها مِنْ دونِ جِــدٍّ واجتهادٍ وصبرٍ. فكَمْ صبرَ على جوعٍ، وكمْ قــامَ للهِ فــي الليلِ، وكمْ أحسنَ إلى الفقراءِ، وكمْ جاهَدَ نفسَه الأمّــارةَ بالسّوءِ مِنَ الانزلاقِ في المفاسدِ والرَّذائلِ حتَّى وصَــلَتْ إليهِ الخِلافةُ؟. إذنْ: لقدْ سعى إليها فطاوعَتْهُ وجاءتْ إليــهِ مُنْقادةً رغمَاً عنها.

وهكذا أنا. لقدْ عملتُ واجتهدتُ. وسعيتُ بِــصبري إليها حتَّى وصلَتْ إليَّ طائعةً رغماً عنها. لأنَّهُ لا شــيءَ يأتي مِنْ دونِ مُقابلٍ.

في باريسَ عاصمةِ النّورِ، وعلى مسرحِ (الكونسير فوتوار) كانَ شيطاني الإبداعيُّ آخذاً بي، وبعقولِ جمهوري، إلى ملكوتٍ منَ الأنغامِ والألحانِ الارتجاليَّةِ المدهشةِ. العيونُ كلُّها تحدِّقُ بي مبهورةً، **وجلالةُ الملك فيصلَ** مفتونٌ حَدَّ النَّشْوَةِ. فما كانَ منهُ إلاّ أنْ أصدرَ كتاباً ملكياً ممهوراً بخاتَمهِ يتوِّجني بهِ أميراً للبُزُقِ.

ومنْ يومِها صارَ لنا– نحنُ العربَ - أمير للسيفِ والقلمِ هو الشاعرُ محمود سامي البارودي، وأميرٌ للشِّعرِ هو "أحمد شوقي"، وأميرٌ للطربِ هو "محمد عبد الوهّاب"، وأميرٌ للبُزُقِ هو أنا "محمد عبد الكريم".

يَعْجَبُ الناسُ لسرعةِ عزفي، وإتقاني لما أعزفُ. لكنَّني لا أَعْجَبُ مثلَهُم، لأَنَّني ما وصلْتُ إلى ذلكَ إلاّ بالاجتهادِ والتَّدريبِ والمثابرةِ والمكابرةِ.

وحتَّى يُصبْحَ المَرْءُ فنَّاناً عظيماً عليهِ أنْ يُجاهدَ بجسدهِ وروحهِ وعقلهِ وقلبهِ ومشاعرهِ كلَّ ثانيةٍ منْ عمرهِ. وأنْ يظلَّ كذلكَ إلى نهايةِ حياتهِ الإبداعيَّةِ.

كثيرونَ أولئكَ الَّذينَ كانوا عازفينَ جيِّدينَ على آلــةِ البُزُقِ وقَد انسجموا معها أيَّ انسجامٍ. ولكنّهم راوَحُوا في أماكنِهم لا يطوِّرونَ عزفَهُم، ولا يُقدِّمونَ جديداً.

أمَّا أنا فقدْ عانَــدْتُ آلتــي وعانَــدَتْني. صـــارَعْتُها وصارَعَتْني. إنها لا تُطيعُنــي فــي جُمــوحِ أفكــاري، واضطرابِ مشاعريَ، وفَوَرانِ أحاسيسي.

كنتُ أتفجَّرُ منْ داخلي مِثلَ بُركانٍ جبّــارٍ. وكنـــتُ أعرفُ أنَّ ما في داخلي هو إبداعٌ لا يُعطيهِ سوى بُركـــانٍ خاصٍّ بالعباقرةِ.

كنتُ أطمحُ لأنْ أكونَ واحداً مِنْ هؤلاءِ المبــدعينَ، وهذا حقٌ لكلِّ إنسانٍ طموحٍ. بلْ مِنْ واجبِ كلِّ إنسانٍ أنْ يُفكِّرَ هكذا، وأنْ يعملَ على تحقيقِهِ.

آهٍ أيها البُزُقُ المليءُ بالأسرارِ، كيفَ لا تُلبّــي لــي شهواتيَ الشيطانيةَ في العزفِ؟.

لماذا تخونُني كلَّما غامرْتُ على جــسدِكَ الــضئيلِ، النحيلِ، الشَّبيهِ بجسدي، مثلَ السندبادِ فتخذِلُني، وتَقْصِفُني

بأعاصيرِكَ، أنا الذي لديَّ حُمولةٌ ثقيلــةٌ مِــنَ المــشاعرِ والأحاسيسِ والتعبيرِ؟.

ولماذا تلطُمُني أمواجُكَ لِتَرُدَّني إلى الشَّاطئِ حزيناً، مُتْعَباً؟. لماذا تَمْنَعُني مِنِ استخراجِ اللؤلؤِ والدُّرِّ المَكنونَيْنِ في أعماقِ محيطِكَ، ومِنْ مَجاهلِ غاباتِكَ العذراءِ؟. هــلْ تنفعُ الآهاتُ والآلامُ والأحزانُ فأركُنُ إلى الهزيمةِ وأنــا المضطرمُ بالأفكارِ الموسيقيِّةِ؟.

لا شيءَ ينفعُ غيرُ التحدّي. وسأُعلنُ ما في داخلــي نحوكَ. وسأُغضِبُكَ أيَّها البُزُق الــضَّئيلُ رغــمَ تاريخِــكَ العريقِ، وعزِّكَ التَّليدِ، ونغماتِكَ الرَّائعاتِ.

نعمْ. سوفَ تَغضَبُ منِّي حينَ أُعلِنُ في وجهِكَ غيرَ خائفٍ ولاجبانٍ أنَّــكَ آلــةٌ قاصــرةٌ، ناقــصةٌ، لا تُلبّــي طموحي. لأنهُ لا يُمكنُ استخراجُ كثيــرٍ مِــنَ النَّغمــاتِ والطَّبقاتِ منْ أوتارِكَ التَّقليديَّةِ، ومِنْ طولِ زَنْدِكَ العتيقِ، ومِنْ حبساتِكَ القليلةِ!.

إنكَ أشبهُ بطفلٍ لديهِ كلُّ الأعضاءِ ولكنهـا توقفـتْ عَنِ النُّموِّ فلا تستطيعُ أنْ تفعلَ سوى ما تَقْدِرُ عليهِ، وهو قليلٌ قليلٌ بالنِّسبةِ لي يا صديقيَ البُزُقَ. هلْ تفهمُني؟.

هلْ أنا ذلكَ الطفلُ الصغيرُ المَعُوقُ؟. كلا. إنَّ فـي ضآلةِ جسدي عزيمةً أُوزِّعُ منهـا علـى الرِّجـالِ مـالا يستطيعونَ حَمْلَهُ، لأنَّ روحيَ عظيمـةٌ، وعقلـيَ جبّـارٌ، وإرادتي مِنْ فولاذٍ، وأحلامي مِـنْ عطـورٍ وريـاحينَ، وأجنحتي مِنْ طائرِ "**الرُّخِ**" الأسـطوريِّ. وأنـا أريـدُ أنْ أصيرَ أسطورةً.

أريدُ أنْ أُحلِّقَ في السَّماءِ السَّابعةِ، وأغـوصَ فـي أعماقِ البحارِ السَّبعةِ، وأكتشفَ أسرارَ الأراضي السَّبعِ.

أريدُ أنْ أسيطرَ على العـالَمِ الـصَّاخبِ بِعزفـي. بأصواتِ الموسيقا. وأنْ أُعيدَ إليهِ التَّوازنَ والمحبَّة. فـلا تَحْزَنْ يا بُزُقي، ولا تَغضبْ. لأنَّني سوفَ أجعـلُ منـكَ أعظمَ آلاتِ الدُّنيا كلِّها.

ومثلَ شمسٍ بزغتْ مِنْ بــينِ غيــومٍ ســوداءَ بَزَغَــتْ أفكاري بآلةٍ جديدةٍ. لابُدَّ مِنْ إطالةِ زَنْدِ البُــزُقِ لزيــادةِ عــددِ حبساتِهِ كي يصيرَ مثلَ البيانو. بلْ وأفضلَ. هلْ - أنا - أحلُمُ؟.

ولماذا لا أحلُمُ؟. كفاكَ يا صديقي البُزُقَ أنْ تكــونَ مؤلَّفاً مِنْ ديوانٍ ونِصفِ الدِّيوانِ. أعني يا أصدقائي مِــنِ اثنتيْ عَشْرَةَ درجةً موسيقيَّةً وحَسْبُ. فهلْ يتــساوى فــي رأيِكُمْ هذا العددُ معَ ستٍّ وخمسينَ درجةً صوتيّةً مثلاً؟.

سوفَ تصبحُ يا صديقي البُزُقَ ثــروةً باهظــةً لا يُقدِّرُ ثمَّنَها سوى المبدعينَ. ولَسوفَ أستخرجُ مِنْ أعمــاقِ روحِكَ اللؤلؤَ المكنونَ. ولَسوفَ تَسعَدُ معي كثيراً ونحــنُ نطيرُ مُحلِّقَيْنِ في الأعــالي القَــصِيَّةِ، مُلْتَحِمَــيْنِ جــسداً وروحاً. أنتَ أنا. وأنا أنتَ.

في بيروتَ.. حيــثُ البحــرُ الرَّحْــبُ، والــصَّبَايا السَّابحاتُ الجميلاتُ، والحرِّيَّــةُ والحــضارةُ، والعمــلُ الدَّؤوبُ، قرَّرتُ أنْ أُعدِّلَ في جسدِ بُزُقي وأطوِّرَهَ.

أمامَ صانعِ العِيدانِ وقفتُ رافعاً رأسي، ماطّاً جسدي إلى أعلى كي يراني، وأنا أطلبُ منهُ أنْ يصنعَ لي بُزُقـاً جديداً وِفْقَ مقاساتي وتعديلاتي، كما أرغبُ وأهوى.

لمْ تكنْ عينا الصَّانعِ تستقرّانِ في مِحْجَرَيْهما. كانتـا تَبْرُقانِ وتتحرَّكانِ يميناً وشمالاً وقد أُصيبتا بالذُّعْرِ والدَّهشةِ والاستغرابِ ممّا سمعَ منِّي. ومِنَ المؤكَّدِ أنَّهُ كانَ يقولُ في سِرِّه: كيفَ يتجرَّأُ هذا القَزَمُ على تعديلِ آلةِ البُزُقِ؟. ومَنْ هو؟. ولماذا يريدُ أنْ تصلَ حبساتُهُ إلى ثمَّانٍ وثلاثينَ حبسةً بدلَ سبعَ عَشْرَةَ حبسةً؟. لماذا ؟. أهوَ مجنونٌ، أم عبقريٌّ؟. هذا الغجريُّ مجنونٌ. نعمْ مجنونٌ. لأنهُ يريدُ أنْ يُغيِّرَ آلـةَ أجدادِهِ، ويَزيدَ عليها وتَرَيْنِ مزدَوَجيْنِ آخرَيْنِ.

- لا تُحدِّقْ فيَّ كثيراً يا سيدي. سوفَ أدفعُ لـكَ ما تريدُ، وزيادةً.

هكذا قلتُ لصانعِ العيدانِ، وناولْتُهُ أجْرَتَـهُ مُقَـدَّماً، وتواعَدْنا على يومٍ محدَّدٍ للتسليمِ.

كنتُ متلهِّفاً لهذا اليومِ. بلْ كنتُ أتحرَّقُ فلا يَسْتَقِرُّ لي مقامٌ، ولا يَطيبُ لي زمانٌ، وأنا أفكِّرُ بآلتي الجديدةِ خائفاً. فهلْ فَهِمَ الصَّانعُ أفكاري وهو أشهرُ صانعِ آلاتٍ موسيقيَّةٍ في لبنانَ كلِّهِ؟.

في دكّانِهِ الصَّغيرةِ المكتظَّةِ بالأخشابِ والآلاتِ والقوالبِ والمعِدَّاتِ، وبينَ روائحِ الغِراءِ الأحمرِ المطبوخِ الذي يغلي على النارِ جلستُ على كرسيٍّ صغيرٍ مِنَ القَشِّ، وأنا أضعُ البُزُقَ الجديدَ بهدوءٍ في حِضْني.

ها هو ذا قلبي يَخْفُقُ بِشِدَّةٍ. عينايَ تَبْرُقانِ لِمنظرِهِ الجميلِ. روحي تتقافزُ بينَ جَنَباتي. عقلي عُصفورٌ طارَ مِنْ عُشِّهِ كأنَّهُ عاصفةٌ مِنْ ريحٍ ونارٍ. أناملُ أصابعي تخشى أنْ تَتَحسّسَ الأوتارَ على الزَّنْدِ الطويلِ الذي بدا أطولَ منِّي وأنا جالسٌ. أنا في قلبِ العاصفةِ، والصَّانعُ ينظرُ إليَّ متلهِّفاً ليرى حقيقةَ ما صنعَ، ومنتظراً ماذا سأفعلُ.

ضبطتُ أوتارَ البُزُقِ بدقّةٍ وإحكامٍ. واستجمعتُ طموحاتي وأحلامي، وركَّزْتُ أفكاري، واقتحمتُ عالَمَ

النَّغماتِ على طولِ الزَّندِ منْ أوَّلِ درجةِ قرارٍ إلى أعلـــى درجةِ جوابٍ، وبالعكسِ، فاستجابَ لها بُزُقي الجديدُ.

كانَ حَدَثَاً خارقاً حينَ راحتْ أناملُ يـــدي اليُـــسرى تقفزُ مجنونةً فوقَ الأوتارِ صاعدةً، هابطةً، وهي تَحــبِسُ النَّغماتِ وتُطلِقُها. بينَما راحتْ إحدى أصابعِ يدي اليمنـــى المُمْسِكَةِ بالريشةِ تَنْقُرُ إيقاعاتٍ على صَدرِ البُزُقِ الخشبيِّ فَيَرِنُّ رنيناً مدهشاً، فإذا الإيقاعاتُ ســريعةٌ، منــضبطةٌ، متوافقةٌ، ومشاكسةٌ، ما سَــمِعَ صـــانعُ العيــدانِ مثْلَهـــا، ولا شبيهاً لها مِنْ قَبْلُ.

ومثلَ صاعقةٍ مَهُولةٍ انفجرَ الرَّجــلُ هاتفـــاً وهـــو يهزُّني مِنَ الفرحِ: أنتَ شيطانُ البُزُقِ محمد عبد الكـــريم. وركعَ أمامي على ركبتيْهِ وقدْ خطفَ أصابعي بينَ يديـــهِ وراحَ يقبِّلُها إصْبعاً إصْبعاً. ثمَّ ضمّني إلى صدرِهِ بحنـــانٍ لمْ أُحِسَّ بهِ مِنْ قَبْلُ، وكأنَّهُ والدي.

بكى فبكيتُ معهُ. لقدْ فعلَها صانعُ العيدانِ وأهـــداني حُلُمي، ومَهَّدَ طريقَ طموحاتي.

يا لَتِلكَ السِّنينِ الرَّائعاتِ، تَعْبُرُ بنا، ونَعْبرُ بها مِـــنْ دونِ حسابٍ للزَّمنِ قَدْرَ حسابِنا لِضروبِ الإبداعِ، وإمتاعِ النَّاسِ، وتخليدِ الحياةِ بالموسيقا!.

(٩)

على الأثير

في الفضاءِ تتسامى النَّغَماتُ كالطُّيورِ والعـصافيرِ. لكنَّ النَّغماتِ ما تلبثُ أنْ تدخلَ بيوتَ الناسِ عبرَ المِذياعِ الذي يُرسِلُ لهمْ أغنياتٍ وموسيقا ونشراتِ أخبارٍ فَيَربِطُهم بالعالَمِ الكبيرِ.

لقدْ صارَ في إمكانِ النَّاسِ أنْ يسمعوا مُطربي الوطنِ العربيِّ الكبارَ: **صالح عبد الحيّ - أبو العلا محمد - أمّ كلثوم - محمد عبد الوهاب - سيد درويش - سعاد محمد - ماري جبران - زكريا أحمد**، دونَ أنْ يشتروا صُندوقَ السَّماعِ "**الجرامافون - البيك أب**"، أو يذهبوا إلى المقاهي - المسارحِ لِيدفعوا المالَ ويسمعوا أولئكَ المطربينَ.

يا لَهذا الاختراعِ العجيبِ الذي قــرَّبَ النَّـــاسَ مِـــنْ بعضِهم بعضاً، ووحَّدَ أرواحَهم وأذواقَهم ومشاعِرَهُم!.

وهكذا وجدتُ نفسي في إذاعةِ **القدْسِ الشريفِ** عـــام ١٩٣٨م عازفاً. ولكنني لمْ استمرَّ فيها طــويلاً لخـــلافٍ معَ مديرِها.

غيرَ أنَّ بريطانيا التي كانتْ تــستعمرُ فلــسطينَ باســمِ الانتدابِ قدْ سارعتْ يومَها وافتتحتْ إذاعةَ "**جِنـــين**" أو **محطـــةَ "الشرقِ الأدنى"** منْ أجلِ الدِّعايةِ أثناءَ الحربِ العالميّـــةِ الثانيـــةِ ضدَّ ألمانيا. وقدْ أرسلَ إليَّ مديرُها السيدُ "**فهمي شمّا**" مبعوثَـــهُ الكولونيلَ "**مارسيك**" ليكلِّفَني برئاسةِ القسمِ الموسيقيِّ.

وجدْتُ نفسي في الإذاعةِ وحيداً. فهلْ أعملُ وحـــدي؟. أينَ الخبراءُ والعازفونَ والفنيُّونَ والمطربونَ والمُقدّمونَ؟.

لمْ يتأخَّرِ الجوابُ طويلاً حتَّى جاءَني الرَّدُّ سريعاً. لقدْ وَضَعنا تحتَ تصرُّفِكَ طائرةً خاصةً لتُحْضِرَ بها مَنْ تشاءُ مِنَ الفنَّانينَ والمبدعينَ إلى الإذاعةِ كي يعملوا معكَ.

يا لَها مِنْ مُفارَقةٍ!. تخيَّلوني يا أصدقائي - أنا الذي أطيرُ بِبُزُقي داخلَ العالَمِ الرُّوحانيِّ للإنسانِ بسرعةٍ تشبهُ سرعةَ البرقِ - أطيرُ بطائرةٍ مِنْ حديدٍ لأَجلبَ بها طيوراً لا أحلى ولا أجملَ، كيْ تلوِّنَ الحياةَ بألوانٍ موسيقيَّةٍ لا يُبدِعُها إلاّ الإنسانُ وحدَهُ، رغمَ أنّها تتلاشى سريعاً مِنَ الأُذنِ، ولكنَّها تَبقى في الوُجدانِ إلى الأبدِ.

الإنسانُ عظيمٌ. عبقريٌّ. قادرٌ على أنْ يُغيِّرَ في الطَّبيعةِ ما يشاءُ، وأنْ يعدِّلَ في الحياةِ الإنسانيَّةِ والروحِ البشريَّةِ ما يشاءُ. فيا لَهُ مِنْ كائنٍ مُقدَّسٍ، لأنَّ اللهَ خلَقَهُ في أحسنِ تقويمٍ.

طِرْتُ إلى القاهرةِ كيْ أردَّ لها بعضَ جميلِها عليَّ، لأعودَ ومعي على الطائرِ المَيْمونِ الممثِّلُ المسرحيُّ الكوميديُّ المبدعُ "**نجيب الريحاني**". ثمَّ استقدمتُ مِنْ لبنانَ - الذي آواني وأكْرَمَني سنينَ طويلةً - عازفَ الكمانِ الضريرَ "**إحسان فاخوري**"، والمطربَ الجميلَ "**صابر الصَّفح**"، و"**حليم الرومي**"، و"**ماري عكّاوي**" التي

سأُلحِّنُ لها أجملَ الألحانِ، و"**فهد النَّجّار**"، و"**عبـــد القـــادر آغا**" والشَّاعرَ السُّوريَّ الصديقَ "**عمر الزعني**"، و"**عبد اللهُ المُدرِّس**"، و"**بشارة واكيم**".

وانطلقتْ إذاعتُنا، وحلَّقتْ كَنَسْرٍ عظيمٍ، فاردةً جناحَيْهـــا فوقَ القِمَمِ. لكنّ "جنِين"؛ تلكَ البلْدَةَ الصَّغيرةَ القريبةَ منْ "**يافـــا**" لمْ تستطعِ استضافتَنا. لقدْ حدثتْ أزَمَـــةُ ســـكنٍ كبيـــرةٌ فنـــامَ بعضُنا في العَراءِ. ولهـــذا شَـــكَوْنا حالَنـــا إلـــى الكولونيـــلِ "مارسيك" الذي استأجرَ لنا بنايةً كبيرةً في "يافـــا"، وخَـــصَّصَ سيَّاراتٍ لتنقُلَنا ما بينَ بيوتِنا والإذاعةِ، وأهالي يافا لا يعلمـــونَ مصدرَ بَثِّ هذهِ الإذاعةِ؛ محطَّةِ الشرقِ الأدنى؛ الَّتـــي لعبـــتْ دوراً كبيراً في تنشيطِ الموسيقا في الوطنِ العربيِّ.

لمْ يكُنْ بيتي في يافا مُغلقاً أمامَ أحدٍ منْ وفودِ المبـــدعينَ العربِ. ولمْ تكنْ أبوابُ الإذاعةِ مغلقةً، ولا مَسدودةً في وجـــهِ واحدٍ منهم. كراسيُّهُم محفوظةٌ دائماً كما هو كرسيّي الخـــاصُّ بي، ذو الدَّرجاتِ الثَّلاثِ كأنَّهُ سُلَّمٌ أجلسُ فوقَهُ لأُشْرِفَ علـــى الفرقةِ، وأقودَ العزفَ المُنظَّمَ المُوحَّدَ.

وبرغمَ قسوةِ العملِ وطولِ الزَّمنِ ومتعةِ الإبداعِ لــمْ تكنِ النُّكتةُ تفارقُ أحداً منّا. النُّكتةُ عسلُ المَحبّــةِ، وملِــحُ المَوَدَّةِ، إلاّ إذا وصلتْ حدَّ الإهانةِ، والحَطِّ منَ الكرامةِ.

قُرِعَ بابُ بيتي في يافا. لمْ أكنْ موجوداً. فَتَحَ أخــي البابَ فإذا برَجُلٍ وسيمٍ يلبسُ طُربوشاً أحمرَ؛ رجلٍ أنيــقٍ يسألُ عني بلهجتِهِ المِصْريةِ الجميلةِ.

- الأستاذ محمد عبد الكريم موجود؟.

- إنّه في الإذاعة. ماذا تريدُ منه؟. أنا أخوه.

- وأنا **محمد عبد الوهّاب**.

- أنت؟.

قالَها أخي في دهشةٍ، ثمَّ تابعَ فَرِحاً: تفضَّلْ. تفضَّلْ.

كانَ محمد عبد الوهــاب صــاحبَ نكتــةٍ. ســريعَ البديهةِ. حادَّ الذكاءِ والألْمَعيَّةِ. فهو حينَ رأى أخي طويلاً مِثْلَ كلِّ الرِّجالِ، ولا يُشْبِهُني، هتفَ بدهشةٍ مــصطَنَعةٍ، وبلهجتهِ العاميَّةِ الأنيقةِ مازحاً:

- اللهْ... هُوَّ الأميرْ أخوكْ ؟!.

- نعم.

- أمّالْ ليهْ إنتَ طويلْ.. وهُوَّ قصيَّرْ؟!.

وتعانَقْنَا بعدَ غيابٍ طويلٍ أنا وأميرُ الطَّربِ العربيِّ، المجدِّدُ في الغناءِ والموسيقا، وأنْجَزَنا أعمــالاً موســيقيَّةً وغنائيَّةً لإذاعَتِنا.

كانَ ذلكَ فَتْحَاً كبيراً. فإذا بالفتوحاتِ تتوالى حيــثُ سيعملُ معنا المطربُ المِصْريُّ الشَّعبيُّ الكبيــرُ "**محمــد عبد المطَّلب**"، والممثِّــلُ الكوميــديُّ وفنَّــانُ المونولــوجِ النَّاقد السَّاخرِ "**محمود شــكوكو**"، ونجمُ السِّينما المِــصْريِّةِ الممثِّلُ الكوميديُّ "**إســماعيل ياســين**"، وســيِّدةُ الــرَّقصِ الشَّرقيِّ "**تحيَّــة كاريوكــا**". كمــا عمــلَ معنــا الملحِّــنُ الفِلسطينيُّ الموهوبُ "**رياض البَنْدَك**"، والفنَّــانُ الــسُّوريُّ "**زهير منيني**" الذي تَوَجَّهَ بنصيحةٍ مِنْ أخي إلــى الغنــاءِ الدِّينيِّ فنجحَ نجاحاً باهراً.

أمَّا اللِّقاءُ الأجملُ فكانَ بالفنَّانِ المبدعِ وعازفِ العودِ العظيمِ الذي لا يُجارى والملحنِ البارعِ "**فريـــد الأطـــرش**" ابنِ سوريَّةَ البَّارِّ.

كانَ "فريد" ينافسُ "عبدَ الوهابِ" في كلِّ شيءٍ. فـــي الموسيقا وفي الغناءِ، وفي مَزْجِ الأساليبِ والتجديدِ، وفي استخدامِ القوالبِ الغنائيَّةِ والإيقاعيَّـــةِ الأوروبِّيَّـــةِ، وكـــلٌّ منهما يُجيدُ ويُتقنُ ما يُبدعُ.

كانَ "فريد" حينَ يزورُ القدْسَ الشَّريفَ يُقيمُ عنـــدي تارةً، وأخرى يُقيمُ عندَ جمعيةِ الشُّبّانِ المسيحيِّينَ. لقدْ كانَ فريدَ عصرِهِ. مَزَجَ الألحانَ الشَّعبيّةَ بالألحانِ الكلاسيكيَّةِ. ومَزَجَ ألحانَ الأقطارِ العربيَّةِ في بوتقـــةٍ واحـــدةٍ دونَ أنْ يَمْحوَ سِماتِ كلِّ لحنٍ خاصٍّ، سوريّاً كـــانَ أمْ مِـــصْرِيّاً. عراقيّاً أمْ مغاربيَّاً. كانَ "فريد الأطرش" نبـــيلاً، كريمـــاً، ودوداً، وأصيلاً أصالَةَ جبلِ العربِ السُّوريِّ الأشمِّ.

(١٠)

الأحضانُ الدافئة

سُنَّةُ الطَّبيعةِ أقوى السُّنَنِ وأروعُها. إذْ مَهما غـــابَ الطَّائرُ عَنْ وطنِهِ فلابدَّ لهُ مِنَ العــودةِ مــشتاقاً، لِيُــريحَ جناحَيْهِ هنا، ويُعيدَ تنظيمَ دقّــاتِ قلبِــهِ، ويَــروي رقّــةَ مشاعرِهِ وأحاسيسهِ، ولطافةَ روحِهِ.

كانَ لا بدَّ لي بعدَ ذلكَ الجَوَلانِ الطويلِ فــي بــلادِ اللهِ الواسعةِ مِنَ العودةِ إلى وطنـــي الــصَّغيرِ ســوريّةَ، لأَحُطَّ عنّي شِراعَ السِّندبادِ البحريِّ، وأَســتقرَّ كالــسِّندبادِ البَرِّيِّ ومِنْ دونِ سَفَرٍ. كانَ لابدَّ مِنْ حِــضْنٍ دافــئٍ هــو حِضْنُ دمشقَ الفيحاءِ. وهاأنذا في إذاعتِهــا التــي بثّــتْ إرسالَها منذُ الأربعينيّاتِ.

وها هيَ الخمسينيّاتُ مِنَ القَرنِ العشرينَ تحملُ إلى آذانِ المستمعينَ نَغماتِ بُزُقي وأجملَ ما عزفْتُ على الهواءِ مباشرةً، ومِنْ دونِ تسجيلٍ. فضاعتْ تلكَ الألحانُ، وضاعَ الأَلَقُ الجميلُ. يا لَلْخسارةِ!.

كنتُ - وأنا الطَّائرُ الغرِّيدُ - قدْ نَضَجْتُ وأَدْنَيْتُ ثماري مِنَ النَّاسِ جميعاً يَقطِفونَ منها ما يَشتهونَ. ولقدْ فعلوا. لأنَّني قدَّمتُ لهُمْ روحي وهي تُبدِعُ كلَّ جديدٍ طازَجاً، وبِطعومٍ مختلفةٍ، وأنا أمزُجُ اللَّحنَ العربيَّ باللَّحنِ الأوربيِّ. وأمزُجُ الأوزانَ والإيقاعاتِ العربيَّةَ بالأجنبيّةِ. وأخترِعُ ألحاناً على إيقاعاتٍ لمْ تَأْلَفْها الأذُنُ العربيّةُ بَعْدُ كثيراً، هي إيقاعاتٌ مِنْ أمريكا اللاتينيّةِ مثلُ: **"الرومبا"** و**"السَّامبا"** و**"التانجو"** و**"الفوكس - تروت"**.

ولمْ يَصْعُبْ عليَّ يومَها فَهْمُ وتَذَوُّقُ **"موزارت - بيتهوفن - فاجنر - باخ"** وغيرِهِم مِنَ المؤلِّفينَ الموسيقيِّينَ الأوروبِّيِّينَ المبدعينَ. ولمْ يَصْعُبْ عليَّ فَهْمُ تقنيّاتِ عزفِ عازفيهم الكبارِ على آلاتِ "الكمانِ - البيانو - الجيتارِ -

الفلوتِ - المَندولينَ..إلخ". بلْ فَعَلَتُ ما فعلــوا بأســلوبيَ الخاصِّ. وأبْدَعْتُ في قوالبِ "**اللُّونغا - التَّانجو - البولْكــا - السِّيرِناد**" بما يفوقُ ما أبدَعَهُ أهلُهَا.

كنتُ أعرفُ أنّ هذهِ القوالبَ الموسيقيَّةَ لا تَخضعُ إلاّ لفنَّانٍ متميِّزٍ بعلْمِهِ، وفنِّهِ، وعزفِهِ. لأنَّها تحتاجُ إلى سرعةٍ هائلةٍ، خاصَّةً قالِبَيْ " اللُّونغا والبولْكا". بلْ إنّ جاذبيَّتَهــا وجمالَها يَكْمُنانِ في تلكَ السُّرعاتِ المذهلةِ!. إنها موسيقا حيويَّةٌ، قويَّةٌ، هادرةٌ، نشيطةٌ. وكنتُ أنا بركاناً جباراً.

لمْ تكنْ معزوفــاتي "**رقــصةُ الــشَّيطانِ - المعركــةُ الموسيقيَّةُ**"، و"**لونغاتي**" وغيرُها لَتقِلُّ براعةً عمّا أعرفُــهُ مِنْ موسيقا أوروبا.

بلْ لقدْ عَزَفَتْ فرقةٌ سيمفونيَّةٌ معزوفةَ "رقصة الشَّيطان" و"المعركة الموسيقيَّة"، وكنتُ أعزفُ معها الجــزءَ الخــاصَّ بالبُزُقِ، لأنّ القطعةَ الواحدةَ كانــتْ أشــبهَ بـــ"**الكونــشيرتو**" المكتوبِ لآلةٍ محدَّدَةٍ، وكانتِ الآلةُ هي "البُزُقَ".

وهنا في دمشقِ الخمسينيَّاتِ، دمشقِ الانقلاباتِ المُتتاليةِ، كنتُ أنتظرُ كلَّ صباحٍ أو مساءٍ خبراً جديداً عَنِ الأوضاعِ السِّياسيَّةِ المفاجِئَةِ.

ذاتَ يومٍ قَرَعَ بابَ بيتي رجالٌ أشِدَّاءُ. وحينَ فتحتُ رأيتُهم طِوالَ القامةِ، عريضي المَناكِبِ، يرتدونَ لباسَ الشُّرطةِ العسكريَّةِ.

- أنتَ محمد عبد الكريم؟.
- أنا الأمير.
- الزَّعيمُ يريدُك.
- أيُّ زعيم؟.
- الزَّعيمُ حسني الزَّعيم.
- رئيسُ الجُمهوريَّة؟.
- لا تُماحِكْ كثيراً. تعالَ وكفى.

أحسستُ بأنَّ الرَّجلَ العسكريَّ كانَ قدْ أخفى غَضَبَهُ منِّي لأنَّني كنتُ أسألُهُ تلكَ الأسئلةَ.

حاكمُ سوريَّةَّ يطلبُني؟. ماذا يريدُ منِّي؟. آخ.. لعلّي حكيْتُ نكتةً سياسيَّةً عَنِ الحكومةِ فوصلتْ إلى مـــسامعِه. لعلّي شتمتُ أحداً مِنْ رجالِهِ وأنا لا أدري. لعلّي.. ولعلّي!.

ركبتُ سيارةَ الرِّجالِ المُتجهّمينَ، الصَّامتينَ طـــوالَ الطَّريقِ، وأنا لا أدري إلى أينَ ســـوفَ أمـــضي معهـــم. وفجأةً رأيتُني داخلَ مبنى قصرِ الرِّئاسةِ، وجْهاً لوجهٍ مـــعَ الزَّعيمِ نفسِهِ.

استجمعتُ أنفاسي، ورباطةَ جأشي وقوَّتي وهجمتُ على الزَّعيمِ بِلِساني قائلاً لهُ مِـــنْ دونِ حـــسابٍ لِطولِـــهِ ولطولي، لأنَّهُ زعيمٌ، وأنا أميرٌ:

– ماذا تريدُ منِّي يا زعيم؟.
– أريدُ يا أميرُ أنْ تعزفَ لي، فأستمتعَ بعزفِكَ الرَّائعِ.
– وإذا رفضتُ.
– تعودُ إلى بيتِكَ.
– ولا يتعرّضُ لي أحدٌ ؟.

- الأميرُ فوقَ الجميع.

- إذنْ: أَعِدْني إلى بيتي.

لنْ يُصدِّقَ أحدٌ هذا الموقفَ. سيقولُ: إنَّهُ اختراعٌ وخيالٌ، ذلك إذا أحْسَنَ الظَّنَّ بي، ولمْ يقُلْ: إنَّني أكذبُ.

أعترفُ بأنَّني زِدْتُ بعضَ الكلماتِ وأنا أستعيدُ الحادثةَ مستمتعاً. لقدْ جرى كلُّ شيءٍ هكذا ببساطةٍ.

تُرى هلْ يتجرّأُ الزَّعيمُ على إهانةِ أميرٍ للموسيقا؟. أو على إهانةِ لقبٍ لا يمكنُ لأحدٍ أنْ يحظى بشرفِ حَمْلِهِ إلاّ إذا كانَ عبقريَّاً؟. بينَما يمكنُ لأيِّ ضابطٍ أنْ يصبحَ زعيماً برصاصةٍ، وطلقةِ مِدْفَعٍ. بانقلابٍ. ثمَّ يُوَلِّي سريعاً. لأنّ غيرَهُ سوفَ ينقلبُ عليهِ مِنْ جديدٍ. يا للسُّخريةِ!.

كانَ حسني الزَّعيم - كما يبدو - واعياً لمِزاجيَّتي وعِنادي، فأعادني إلى بيتي سالماً دونَ أنْ يُبْديَ أيَّ انزعاجٍ. ولكنَّني أُقدِّرُ أنَّهُ كانَ يتفجَّرُ في داخلِهِ غَضَباً منّي.

أَشرَفُ ما في الإنسانِ أنْ يعملَ دونَ حسابٍ للأجرِ الماليِّ قدْرَ اهتمامِهِ بالفائدةِ، وأنْ يُنْجِــزَ الجديــد الجيِّــدَ دائماً، بَدَلَ أنْ يُكرِّرَ القديمَ المَمجوجَ.

شيئانِ يَحِقُّ لهما أنْ يتكرَّرا بانتظامٍ دائمــاً إلــى أنْ يَقْبِضَ اللهُ الدُّنيا بِمَنْ عليها: اللَّيلُ والنَّهارُ، لأنَّهما مِعيــارُ حياةِ الإنسانِ أوّلاً، والكونِ ثانياً.

لمْ أقلِّدْ أحداً. ولمْ يتمكّنْ أحدٌ مِنْ تقليدي. ولهذا كنتُ مرغوباً، ومطلوباً، مِنَ الجميعِ، ومرهوباً مِنَ الــضِّعافِ، ومُحْتَرَماً مِنَ المبدعينَ.

لقدْ تباريتُ معَ الكبارِ مِنَ العازفينَ فما خسرَ أحــدٌ منّا، وإنْ اعترفوا بتفوُّقي، مِنْ أمثــالِ عــازفِ القــانونِ التركيِّ الشَّهيرِ **"إسماعيل شنــشيلر"** الــذي زارَ دمــشقَ بصحبةِ زوجَتِهِ في بدايةِ الخمسينيَّاتِ مِنَ القَرنِ العشرينَ. ومِنَ أمثالِ الدكتور "فالين" السُّويديِّ المختصِّ بالموســيقا. وقدْ وقفَ لي احتراماً ولمْ يُدِرْ لي ظهرَهُ وهو يتراجعُ إلى

الوراءِ. ومِنْ أمثالِ عازفي فرقةِ "**فيينّا**" السِّيمفونيةِ النِّمساويِّةِ حينَ زارتْ دمشقَ عامَ ١٩٥٣م. وقدْ عَزَفْتُ أمامَها مُبْهِراً عازفيها فحملوني على أكتافِهم تكريماً لي.

وإذْ أذكرُ ذلكَ فلابدَّ مِنْ ذكرِ تلكَ الحادثةِ الخُرافيَّةِ التي وقعت في بيروتَ عامَ ١٩٣٢م. المكانُ كانَ الجامعةَ الأمريكيَّةَ. والزَّمانُ كانَ ليلاً جميلاً أخّاذاً. والجمهورُ كانَ مجتمعَ بيروتَ المُخْمَليَّ الذي ينشرُ عطورَهُ في الصَّالةِ والمسرحِ.

أمَّا نجومُ خشبةِ المسرحِ فَهُمُ المبدعونَ: كميل شمبير - سامي الشَّوّا أميرُ الكمانِ - يوسف وهبي عميدُ المسرحِ العربيِّ. وأنا. وقبلَ أنْ يُعلنَ مذيعُ الحفلِ عَنْ تقديمي سألني أحدُ الأصدقاءِ المُقرَّبينَ مازحاً:

- هلْ حقّاً أنّ الفارابي عزفَ في مجلسِ سيفِ الدَّولةِ الحَمْدانيِّ فأضحكَ وأبكى وأنامَ النّاسَ؟. هلْ يمكنُكَ أنْ تُبْكِيَنا ؟.

أذكرُ ليلتَها أنَّني تجلَّيتُ في عزفي كما لمْ أتجلَّ مِـــنْ قَبْلُ والنَّاسُ شاردونَ، ســـاهمونَ يُحلِّقــونَ فـــي عـــوالِمَ سحريَّةٍ، وأنا أحلِّقُ في الأعالي. أمّا هُمْ فأراهمْ يحـــاولونَ اللَّحاقَ بي غيرَ عابئينَ ولا خائفينَ.

كنتُ بساطَ الرّيحِ الذي يطيرونَ بهِ. وحينَ أردتُ أنْ أغيِّرَ عزفي مِنْ نغمةٍ إلى أخـــرى عَلِـــقَ وَتَـــرٌ بِظِفْري فانقطعَ. غيرَ أنَّني تابعتُ عزفي. ثـــمَّ عَلِـــقَ الوترُ الآخرُ بِظِفْري فانقطعَ، ولمْ يَبْقَ لي سوى وَتَرٍ واحدٍ مزدَوَجٍ.

إنَّها حقاً لَوَرطةٌ كبيرةٌ. لكنَّني كنتُ أكبرَ منها بكثيرٍ أنا الذي علَّمَتْني الحياةُ، والتجاربُ، والمفاجـــآتُ كثيـــراً كثيراً، مما أكْسَبَني مهارةَ حُسْنِ التَّخلُّصِ فحوَّلتُ الورطةَ إلى إبداعٍ.

لمْ أتوقّفْ عَنِ العزفِ رغمَ أنّ يَدي تسيلُ دماؤُهـــا، ورئيسُ الجامعةِ يرى ما يجري لـــي لأنَّـــهُ يجلـــسُ فـــي

الصّفِ الأوَّلِ. بلْ لقدْ شاهدَ الجميعُ ذلكَ. أمَّا أنا فقدْ كـــانَ تركيزي على عزفي أعلى بكثيرٍ مِنْ سيلِ دمـــائي، وآلامِ ظِفري وجراحي.

وبينَما كانَ الجمهورُ يبكي حزناً على مُصابي كنـــتُ استمتعُ بما أُنْجِزُهُ مِنْ إبداعٍ موسيقيٍّ ارتجـــاليٍّ، متعاليـــاً على الورطةِ اللَّعينةِ. ولكنْ كيفَ أُنهي عزفي وهُمْ يبكونَ على دمائي، ولأجلي؟.

لذلكَ كلِّه قرَّرتُ أنْ أُبدِعَ موسيقا متناسقةً مدهــشةً ثمَّ أَقْفِلُها نشازاً فيضحكُ الجميعُ. وتَــشيعُ البهجـــةُ مِـــنْ جديدٍ، ويستردُّ الجمهورُ أنفاسَهُ ومتعتَهُ، فأنتــصرُ علـــى نفسي وآلامي، لأرى دمائي في المشفى وهـــمْ يُــضمِّدونَ جراحيَ المبْدِعَةَ.

إنَّها مسيرةُ حياةٍ حافلةٍ بكــلِّ مـــا يُفْــرِحُ الإنـــسانَ ويُحزِنُهُ. يَشفيهِ ويُريحُـــهُ، ويَـــضَعُهُ فـــي سُـــدَّةِ المجـــدِ ويُخْفِضُهُ. فهلْ أرويها لكمْ كاملةً بكلِّ تفاصيلِها؟.

لقدْ شاختِ الذاكرةُ. والجسدُ صارَ أكثرَ ضعفاً فوقَ ضعفِهِ. ولكنَّني لنْ أنسى لحظاتِ تكريمي في حِمْصَ عام ١٩٨٧م مِنْ قِبَلِ نادي دوحةِ الميماس وقدْ أكلَ الروماتيزمُ أناملي. لقدْ ذكَّرَني بالأيامِ الجميلاتِ هذا النادي العريقُ وهوَ يحتفي بي معَ أصدقائي الفنَّانينَ، كباراً وصغاراً، ومعَ فِرَقٍ دعاها النادي مِنْ سوريَّةَ، لِيعزفوا جميعاً مِنْ ألحاني.

كانَ إلى جانبي صديقي الحميمُ "أحمد الجندي". وقدْ همسَ لي: هاهو نادينا بشبابِهِ يَتَذَكَّرُكَ يا أميرُ.

قضيتُ أياماً أتردَّدُ على دوحةِ الميماسِ أحاورُ الشبابَ المبدعينَ، وأسمعُهم، وأباركُهم. بينَما المرضُ يغزو جسدي، وروحي تقاومُ. ماذا أقاومُ أنا الذي تعبتُ وشقيتُ كثيراً، وقدْ ناهزْتُ سبّعينَ مِنَ العمرِ؟.

إنَّهُ السَّرطانُ الخبيثُ يَجتاحُني بقوّةٍ خارقةٍ. وهاهو ذا يَطرحُني في فراشي أوّلاً، ثمَّ في سريرٍ مَجّانيٍّ في مشفى الهلالِ الأحمرِ السُّوريِّ لأنَّني لا أمْلِكُ مالاً.

هلْ يُصدِّقُ ذلكَ أحدٌ؟. نعمْ.. كنــتُ مُفْلِــساً رغــمَ إمارتي. ولكنّ الأصدقاءَ لــمْ يَــدَعُوني وحيــداً. الفنــانُ والإعلاميُّ "**علي حسني النَّجّار**" يُلازمني في المشفى ليــلَ نهارٍ. والدكتورةُ "**نجاحُ العطَّــار**" وزيــرةُ الثَّقافــةِ تــأتي لِتطمئنَّ عليَّ. وكذلكَ الموسيقار الدكتورُ "**ســعد الله آغــا القلعة**"، والأديبُ "**عادل أبو شنب**".

وأنا أرقدُ في مشفى الهلالِ الأحمرِ ترتقي ذاكرتــي نحوَ الماضي البعيدِ لِتستعيدَ ألحاناً وأغنيــاتٍ ومطــربينَ ومطرباتٍ، وعازفينَ وأدباءَ وشُعراءَ وسياســيِّينَ. لقــدْ شغلتُهُم بفنّي. بعزفي. بإبداعي. ولكنني لــمْ أنــمْ قريــرَ العينِ، هانيها. لأنَّني كنتُ أفكِّرُ على الدَّوامِ بما هو أحلى وأجملُ، وأكثرُ حداثةً وتحــرُّراً مِــنَ القوالــبِ القديمــةِ الجامدةِ، والأساليبِ الباليةِ.

كنتُ ميّالاً إلى التَّجديدِ في كلِّ شيءٍ. ولهذا أنجزتُ تراثيَ الموسيقيَّ بروحٍ جديدةٍ. فــ"**سماعيّاتي**" فيها أسلوبٌ جديدٌ. و"**لونغاتي**" و"**بولكاتي**" فيها أكثرُ مِنْ جديدٍ.

إنّ مؤلفاتي الموسيقيَّةَ تحكي حكاياتٍ عشتُها، بـــدءاً مِنْ مقطوعةِ **"تحت العريشة"** إلى **"سيريناد بينَ الـــصَّنوبر"**، إلى **"غواني بردى"**، إلى **"فيفـــي"**، إلى **"رقــصةِ البرابــرةِ"**، دونَ أنْ أنسى ذاكَ المخلوقَ الجميلَ العجيـــبَ، الـــسَّاحرَ بحرِّيَّتِهِ **"الطَّيرَ"** بكلِّ أنواعِهِ. إلى **"رقصةِ العجوزِ"** و**"رقــصةِ الشَّيطانِ"** و**"رقصةِ "السَّاحرةِ"** و**"الدُّنيا موسيقا"**، و**"المعركــةِ الموسيقيَّةِ"**، وغيرُ ذلكَ كثيرٌ.

لكنَّ هناكَ تلكَ الأغنياتِ التي ابتــدأتُ بهــا عــام ١٩٣٣م، واستمرّتْ حتَّى عام ١٩٦٢م، أعني أنَّنـــي قـــد ابتكرتُ "١١١" مائةً وأحدَ عَشَرَ لحناً ما بـــينَ **"طقطوقـــةٍ"** و**"مونولوجٍ"** و**"قصيدةٍ"** و**"نشيد"**. وقدْ تنوّعـــتْ إيقاعاتُهـــا بَدْءَاً مِنَ الإيقاعاتِ العربيَّةِ إلى الإيقاعاتِ الأجنبيَّةِ مثـــلِ: "الرُّومبا - السَّامبا - التَّانجو - الفوكس تروت - البـــوليرو". كما تنوّعتْ أشكالُ الألحانِ، خاصَّةً قالبَ "التَّانجو".

محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وأنا كنّا السَّبَّاقينَ إلى هذهِ التَّجديـــداتِ الموســـيقيَّةِ، وإلـــى المـــزجِ بـــينَ

الموسيقَتَيْنِ العربيَّةِ والغربيَّةِ لتطويرِ موسيقانا. وها أنا ذا اليومَ أُخلِّفُ للنَّاسِ، ولكمْ يا أصدقائي، تراثاً تَفخرونَ بــه، رغمَ أنَّهُ قليلٌ بسببِ مِزاجيَّتي التــي أضــاعتِ كثيــراً، وبسببِ عشقي للارتجالِ.

لستُ نادماً على شيءٍ. لأنَّني بهذا القليــلِ تركــتُ للنَّاسِ لَحْنِيَ الجميلَ "**رقّة حسنك ودلالك**" الذي غنَّتْهُ "**تجاح سلام**" باقتدارٍ. وتركتُ للنَّاسِ أغنيةَ "**يا جارتي ليلى**" التــي غَنَّتْها ببراعةٍ "**ماري عكّاوي**" و"**تانجو آلامِ الطَّيــر**" الــذي أبدعتْ فيهِ "**أسمهانُ**" في القاهرةِ. وهناكَ أغنيةُ "**محتــارة يا ناس**" التي غنَّتها المطربةُ العظيمةُ "**سعاد محمد**".

غيرَ أنَّني لا أستطيعُ تجاوزَ تجربةٍ فريدةٍ مِنْ نوعِها هي أغنيةُ "الهِرَّة البيضاء" التي كتبها الــشَّاعرُ الغنــائيُّ "**شبلي المَلاّط**" عام ١٩٤١م في القدْسِ، والتي مطلَعُها:

الهِــرَّةُ البيــضاءُ يــا سادتــي   هِــرَّةُ مولانــا الحكـيمِ الكــبيرْ

بيضاءُ مِثْلَ القطنِ قدْ فُتِّحتْ   أكمامُـهُ ملساءَ مثلَ الحـريرْ

تَـرْبِضُ مِثـلَ اللَّيْـثِ، لكنّهـا فِي سائرِ الحالاتِ ظَبْيٌ تَطيرْ

أذكرُ ذلكَ لأنَّ الغناءَ العربيَّ آنـذاكَ اعتـادَ علـى موضوعاتِ الحبِّ والغزلِ، والنَّدْبِ والـشَّكوى، والـصَّدِّ والهِجرانِ وما يماثِلُها. ولهـذا كـانَ موضـوعُ "الهِـرَّة البيضاء" مفاجأةً للجميعِ، ومَحَطَّ استهجانٍ أحياناً!.

(١١)

على فراشِ الموت

لمْ أدَعْ مشفىً في دمشقَ إلاّ وَزُرْتُهُ كليلاً، عليلاً، مريضاً. حتَّى وصلْتُ إلى مشفى الطِّبِّ النَّوويِّ للسَّرطانِ. ولكنَّ ذلكَ لمْ ينفعْ. فإذا بي في سريرٍ داخلَ مشفى الهلالِ الأحمرِ السُّوريِّ.

هلْ يستطيعُ جسدي الذي ناهزَ سبَّعينَ عاماً وهو الضّعيفُ، النَّحيلُ، أنْ يُقاومَ؟. ولماذا يقاومُ وكانَ قدْ قهرَ عواديَ الزّمانِ، والمصائبَ، ونَصَّبَني هو وعقلي وروحي على إمارةِ البُزُقِ؟.

لستُ أطمعُ في شيءٍ. ولمْ أكنْ أطمعُ إلاَّ أنْ أكونَ إنساناً محتَرماً أوّلاً، وعازفاً مبدعاً ثانياً.

لمْ أجمــعْ فــي حيــاتي مــالاً. ولــمْ أملــكْ داراً. ولا سيّارةً. كلُّ ما كنتُ أملكُهُ هو "بُزُقــي"، وقليــلٌ مِــنَ الثِّيابِ الأنيقةِ، وعصاً، وريشةٌ للعزفِ.

غيرَ أنَّني كنتُ أغنى رجلٍ في التاريخِ كلِّهِ. لأنَّنــي ملكتُ قلوبَ الناسِ وعقولَهُم وأرواحَهــم، وهــذا أعظــمُ الثَّرَواتِ. ولَسوفَ يذكرُني هؤلاءِ كلَّما سمعوا ألحاني، أو ذُكِرَ اسمي. أو كلَّما شاهدوا **"غَجَرِيَّاً" يَتَشَيْطَنُ على بُزُقِــهِ ببراعةٍ**. ولَسوفَ يُهدي النَّاسُ بعضَهُم بعضَاً ما خلَّفْتُ لهُم مِنْ موسيقا جميلةٍ.

أنا محمد عبد الكريم، أميرُ البُزُقِ، أَشهدُ أنَّني عِــشْتُ حياتي، وتمتَّعْتُ بِلَذّةِ العزفِ وسماعِ الموسيقا وإبــداعِها. وأَشهدُ أنَّني الآنَ أرقدُ فوقَ سريري أنتظرُ فِراقَ روحــي لجسدي كيْ أتحرَّرَ مِنَ الآلامِ.

وها أنذا **في الثَّلاثينَ مِنْ شهرِ كانونَ الثَّاني مِنَ العامِ ١٩٨٩م أُسلِمُ روحي لخالِقِها وبارِئِها، بعدَ صراعٍ مريرٍ معَ سرطانيَ الخبيثِ.**

فوداعاً أيُّها الأصدقاءُ الخُلَصَاءُ.

لا تبكوا عليَّ، لأنَّني حَيٌّ في ضمائرِكُم.

واستمعوا إلى عزفي تَرَوْني بينَكُم على الدَّوامِ.

سيذكُرُني قَوْمِي إذا جَدَّ جِدُّهُمْ

وفي الليلةِ الظَّلْماءِ يُفتَقَدُ البَدْرُ

❖ ❖ ❖

❖ ❖

❖

ملحق رقم (١)

شرح المصطلحات الموسيقية الواردة:

١- لونغا = **Longa**: قطعة موسيقية شرقية سريعة الحركة. ميزانها ثنائي ٤/٢. تحتاج إلى مهارة عالية في العزف.

٢- رومبا = **Rumba**: (١) رقصة كوبيَّة ميزانها = ٨/٨ (٣+٣+٢). شاعت في الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا نحو عام ١٩٣٠م. (ص٢٥٢)

٣- فوكس- تروت **fox-trot**: رقصة أمريكية زنجية الأصل. ميزانها ثنائي ٤/٢. (ص- ٢٢٠)

٤- سامبا = **Samba**: رقصة برازيليَّة. وهي نوعان: ريفيَّة فيها تأثير أفريقي. ومدينيَّة تسمّى سامبا كاريوكا. وهي رقصة سريعة. ميزانها ٤/٢. (ص٢٥٣)

٥- بوليرو= Bolero: رقصة إسبانية وزنها ثلاثي٣/٤. وقد قُدِّم وزن البوليرو بهيئات مختلفة. (ص١٩٠)

٦- بولكا= Polka: رقصة بوهيميَّة " من بوهيميا". ميزانها ٢/٤. ظهرت في بداية القرن التاسع عشر، وانتشرت في أوربا كلها. (ص٢٤٣)

٧- سيراناد= Seranade: موسيقا ليلية. والأصحُّ موسيقا ليلية في الهواء الطلق، كتلك الأغنية التي يغنيها العاشق تحت نافذة معشوقته. ثمَّ صارت الكلمة تعني في نهاية القرن الثامن عشر المقطوعةَ الموسيقيةَ الآلية. (ص٢٥٥)

٨- تانجو= Tango: رقصة أرجنتينية، أفريقية الأصل. بطيئة. ميزانها ثنائي ٢/٤ . يؤديها راقصان اثنان. (ص ٢٦٢).

أما الموسوعة العربية الميسّرة فترى أن الإيقاع الموسيقي في رقصة التانجو هو رباعي الخطوات. أي ٤/٤. (ص ٤٨٦) (٢)

٩- كونشيرتو= Concerto : مؤَلّف آليٌّ مطوّلٌ لآلة منفردة، أو أكثر، بمصاحبة الأوركسترا. (ص ٢٠٣)

ملاحظة :

١ - اعتمدنا في شرح المصطلحات من رقم (٢) وحتى الرقم (٩) على (**معجم الموسيقا الغربيَّة - الأعلام - المصطلحات - الأعمال الموسيقيَّة**). محمد حنانا، ما عدا شرح مصطلح (لونغا).

٢ - اُنظر"**الموسوعة العربيَّة المُيَسّرة**". المجلد الأول - ص ٤٨٦. بيروت. ١٩٨١. إشراف محمد شفيق غربال.

ملحق رقم (٢)

من المؤلَّفات الموسيقيَّة للأمير:

١- سماعي راست

٢- سماعي حجاز غريب

٣- سماعي نهاوند

٤- سماعي عجم

٥- سماعي فَرَحْفزا

٦- لونغا جهارْكاه

٧- لونغا كرد

يضاف إلى ذلك الأعمالُ التي ذكرناها في متن الكتاب

المراجع

١ - **أعلام الأدب والفن**: أدهم الجندي. الجــزء الأول. دمــشق. مطبعة الاتحاد ١٩٥٨.

٢ - **الموسوعة العربية الميسرة**: إشراف محمد شفيق غربــال. المجلد الأول. دار نهضة لبنان للطبع والنشر. بيروت. ١٩٨١.

٣ - **الموسيقا في سورية .. أعلام وتاريخ**: صــميم الــشريف. وزارة الثقافة. دمشق. ١٩٩١

٤ - **لَهْوُ الأيام**: **مذكرات** أحمد الجندي. مذكرات. رياض الــريس للكتب والنشر. ط ١. ١٩٩١م.

٥ - **حول فراش الأمير**: سيرة حياة. تأليف علي حسني النجــار. وزارة الثقافة. دمشق ١٩٩٧م.

٦ - **معجم الموسيقا الغربية**: تأليف محمد حنانا. وزارة الثقافــة. الهيئة العامة السورية للكتاب. دمشق. ٢٠٠٨.

الفهرس

الطبعة الأولى / ٢٠١١م

عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة

أشهد أنني عشت حياتي، وتمتعت بلذة العزف وسماع الموسيقى وإبداعها.

أنا أغنى رجل في التاريخ، لأنني ملكت قلوب الناس وعقولهم وأرواحهم، وهذا أعظم الثروات. ولسوف يذكرني الناس كلما سمعوا ألحاني، أو ذُكِرَ اسمي. أو كلما شاهدوا "غجرياً يتشيطن على بزقه ببراعة".

أنا محمد عبد الكريم
أمير البزق



www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م

سعر النسخة ٥٠ ل.س أو ما يعادلها